نظرية (المعرفة، والتعارف، والاعتراف)

عند الشيخ علي يحي معمر

دراسة نقدية تحليلية

الدكتور – خالد سعيد تفوشيت

أستاذ مساعد بقسم أصول الدين، كلية العلوم الشرعية – سلطنة عمان

Ksaid@css.edu.om

الملخص:

تناولت هذه الورقة نظرية (المعرفة، والتعارف، والاعتراف) عند الشيخ علي يحي معمر بالدراسة والتحليل باعتبارها منهجاً علمياً لتحقيق التقارب والوئام الإنساني، القائم على التعايش مع الآخر؛ موضحة السبل المثلى لمعرفة الآخر والتعرُّف إليه وصولاً إلى الاعتراف به، وتفهُّم ما لديه بالطرق التي تمكِّن البشرية من سد الفجوات المعرفية، وتجاوز العقبات التي تحول دون التلاقي والتواصل.

وتهدف الدراسة إلى عرض مضمون هذه النظرية، وبيان التسلسل المعرفي والمنطقي بين دوائرها، وإظهار المنظور الإسلامي لها، وذلك من خلال توضيح مفاهيمها التأسيسية الثلاث (المعرفة، والتعارف، والاعتراف) لصلة المسلم بالمسلم، أو صلته بالآخرين، وكذلك الوقوف على الضوابط التي تضبط هذه النظرية والأهداف التي تحققها، وبيان العلاقة التكاملية بين الاختلاف باعتباره عاملٌ من عوامل ثراء الفكر البشري الذي يبقى على الدوام، وبين المفاهيم التي تقوم عليها هذه النظرية لتوجيهها الوجهة المنسجمة مع مراد الله.

وظَّف هذا البحث المنهج التحليلي ليعالج موقع المفاهيم الثلاثة في عملية الحوار، مستهدفًا بناء إطار عام لمسألة الحوار المنضبطة بقيم المعرفة والتعارف والاعتراف وقوانين التدافع ضمن رؤية منسجمة تماماً مع الفطرة، كما اعتمد البحث على استقراء فكر الشيخ وأطروحات هذه النظرية من خلال كتابه الإباضية بين الفرق الإسلامية.

وقد استدعى ذلك كله تقسيم موضوع هذه الورقة إلى ست محاور تناولت: تحديد المفاهيم المؤسسة للنظرية، ودوائر النظرية وتسلسلها المعرفي، والمنظور الإسلامي للنظرية، وضوابط النظرية وأهدافها، والعلاقة التكاملية بين الاختلاف والمفاهيم الثلاثة.

وخلص البحث إلى أنَّ نظرية التعارف عند الشيخ علي يحي معمر انبنت على رؤية متكاملة ومستوعبة للمعرفة الصحيحة التي تؤدِّي إلى التعارف الصحيح الذي ينطلق أساساً من الاعتراف بالاختلاف والتباين بين الناس، وهذه الدوائر الثلاث: (المعرفة والتعارف والاعتراف) تعدُّ عند الشيخ من أهم وسائل وحدة الأمة، وحفظ الأخوة والتسامح بين أفرادها وجماعاتها، فهو ينطلق في تأصيلها لهذه النظرية من منطلق القرآن الكريم الذي يؤسس لمبدأ التعارف بين الأمم والشعوب والحضارات (ليتعارفوا).

مقدمة

تناولت هذه الورقة نظرية (المعرفة، والتعارف، والاعتراف) بالدراسة والتحليل باعتبارها منهجاً علمياً لتحقيق التقارب والوئام الإنساني القائم على التعايش مع الآخر؛ موضحة السبل المثلى لمعرفة الآخر والتعرف إليه وصولاً إلى الاعتراف به، وتفهم ما لديه بالطرق التي تمكن البشرية من سد الفجوات المعرفية، وتجاوز العقبات التي تحول دون التلاقي والتواصل، فالمشكلة بين الحضارات ليس في عدم الحوار فيما بينها, وإنما في عدم معرفة ما عند الآخر، والانقطاع عن تكوين هذه المعرفة, وسيادة الجهل أو الفهم المنقوص أو التعصب واتباع الهوى, أو الصورة النمطية والسطحية في المعرفة؛ لذلك فإن كل حضارة غالبا ما تصور مشكلاتها مع الحضارات الأخرى على أساس عدم المعرفة السليمة أو الصحيحة بها, فيبقى جانب الصراع والتصادم هو الطاغي والأبرز.

وقد حاول الشيخ علي معمر أن يبرز من خلال هذه النظرية الرؤية الإسلامية في موضوع الحوار والتفاعل مع الآخر القائم، وذلك من خلال استجلاء منهج القرآن الكريم الذي أُسس لرؤية كونية متوازنة ومتكاملة في الحوار والاتصال والتفاعل، ومنهج سنة النبي ﷺ، وبالنظر في الأمثلة الواقعية الحية لأعمال الخلفاء الراشدين، والصحابة، والتابعين وسير سلفنا الصالح التي تجسد قيم الحوار، والاتصال القرآني في ممارسات الأمة الإسلامية وحضارتها وفي صلتها مع الأديان، والثقافات، والأمم، والشعوب.

فالحقيقة الأساسية التي ركز عليها الإسلام في قضية الحوار ووُظِّفتْ في بيان الحق وخدمته في مختلف صوره وأشكاله اختزلها الشيخ علي معمر في هذه المفاهيم الثلاث التي تُعدُّ الجسر الذي يربط بين الجماعات المتنوعة والمختلفة، فمن دون هذا الاختلاف ما كانت هناك حاجة

للمعرفة، وما كان للتعارف أساسا أنْ يكون؛ لأنَّ التعارف لا يتحقق بدون ترسيخ حقيقة الاعتراف بسنة الاختلاف بيننا في عدة خصوصيات، وذلك عبر تفعيل مواطن الوفاق والاتفاق لبلوغ صيغة إدارية لما نختلف حوله سواءً في فهم الدِّين أو السياسة أو الثقافة أو الاجتماع.

أسئلة البحث:

يمكن صياغة ما سبق ذكره على هيئة أسئلة محددة تكون هي المنطلق للحديث عن هذه النظرية، وهي:

1- ما مضمون هذه النظرية (المعرفة والتعارف والاعتراف)، وما هو التسلسل المعرفي والمنطقي بين دوائرها؟

2- ما هو المنظور الإسلامي لنظرية (المعرفة والتعارف والاعتراف)، هل تعدُّ هذه النظرية من المفاهيم التأسيسية لصلة المسلم بالمسلم، أو صلته بالآخرين؟

3- ماهي الضوابط التي تضبط هذه النظرية والأهداف التي تحققها؟

4- ما هي العلاقة التكاملية بين الاختلاف والمفاهيم التي تقوم عليها هذه النظرية؟

أهداف البحث:

1- عرض مضمون هذه النظرية (المعرفة والتعارف والاعتراف)، وبيان التسلسل المعرفي والمنطقي بين دوائرها.

2- إظهار المنظور الإسلامي لهذه النظرية، من خلال توضيح المفاهيم التأسيسية لصلة المسلم بالمسلم، أو صلته بالآخرين.

3- الوقوف على الضوابط التي تضبط هذه النظرية والأهداف التي تحققها.

4- بيان العلاقة التكاملية بين الاختلاف باعتباره عاملٌ من عوامل ثراء الفكر البشري الذي يبقى على الدوام، وبين المفاهيم التي تقوم عليها هذه النظرية لتوجيهه الوجهة المنسجمة مع مُراد الله.

منهج البحث:

وَظَّف هذا البحث المنهج التحليلي ليعالج موقع المفاهيم الثلاثة في عملية الحوار، مستهدفةً بناء إطار عام لمسألة الحوار المنضبطة بقيم المعرفة والتعارف والاعتراف وقوانين التدافع ضمن

رؤية منسجمة تماماً مع الفطرة، كما اعتمد البحث على استقراء فكر الشيخ وأطروحات هذه النظرية من خلال كتابه الإباضية بين الفرق الإسلامية.

هيكل البحث:

وقد استدعى ذلك كله تقسيم موضوع هذه الورقة إلى مقدمة وست محاور:

مقدمة:

المحور الأول: تحديد المفاهيم المؤسسة للنظرية.

المحور الثاني: دوائر النظرية وتسلسلها المعرفي.

المحور الثالث: المنظور الإسلامي للنظرية.

المحور الرابع: ضوابط النظرية وأهدافها.

المحور الخامس: العلاقة التكاملية بين الاختلاف والمفاهيم الثلاثة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

المحور الأول: تحديد المفاهيم المؤسسة للنظرية.

أولاً: المعنى اللغوي للمفاهيم الثلاث:

– **المعرفة لغة:** مأخوذة من عَرَفَهُ يعرفه بالكسر مَعْرِفةً وعِرْفاناً بالكسر، وهي إدراك الشيء بتفكر وتدبر، فهو أخص من العلم، ويقال: فلان يعرف الله، ولا يقال يعلم الله لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكر، ويضاد المعرفة الإنكار، والعلم الجهل، فهي إدراك الشيء على ما هو عليه وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف [1].

– **التعارُف لغةً:** مأخوذٌ من عرف الشيء عرفانا ومعرفة، أي أدركه بحاسة من حواسه، وتعارفَ يَتعارف تعارُفًا، فهو مُتعارِف، ومُتعارَف عليه، وتعرف إلي فلان جعلتُه يعرفني، وتعارف الرَّجلان تحقَّق كلاهما من الآخر وعرَفه، وتعارف الصَّديقان بعد سنواتٍ من الفِراق، وتعارف الطُّلاَّب: عرَف

(1) انظر الرازي، محمد بن أبي بكر: **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان: بيروت طبعة 1995، 1 / 467، وانظر المناوي، محمد: **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر, دار الفكر، بيروت, دمشق، الطبعة الأولى 1410، 511/1. وانظر الجرجاني، علي بن محمد بن علي: **التعريفات**، دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة الأولى، 1405، تحقيق: إبراهيم الإبياري، 283/1.

بعضُهم بعضًا، قال تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}، وتعارفوا على أمرٍ: أصبح متّفقًا عليه بينهم في السلوك والعادات والمعاملات ونحو ذلك حين تصبح مقبولة دون اتّفاق رسميّ، مثل لُغةٌ مُتعارَفٌ عليها، وأجرٌ مُتعارَفٌ عليه، وهذا أمرٌ مُتعارَفٌ عليه.

- **الاعتراف في اللغة:** مأخوذٌ من اعترف يعترف اعترافاً: أي اعترف بالشيء وأقرّ به، أي اعترف بالخطاء، واعترف الشيء: عرفه، واعترف إليه: أخبره باسمه وشأنه، واعترف الضالة: وصفها من غير أنْ يراها بصفة يعرفها هو وحده ويعلم بها أنه صاحبها، واعترف به: دل عليه، واعترف للأمر: صبر، واعترف: ذل وانقاد [2].

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للمفاهيم الثلاثة:

إنَّ المتتبع للمعنى اللغوي لهذه المفاهيم يدرك تداخلها وترابطها في المعنى فمفهومُ التعارفِ مأخوذٌ من المعرفة ومن العرفان, وهما يفيدان إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، والتعارف مزيج من التعرّف والتعريف، فمفهوم التعارف ذو سعة يمكن أنْ يشمل كل المعاني التي تدل على التعاون والتساكن والتعايش، ويمكن أيضاً أن يستوعب قيم الحوار، والجدل بالتي هي أحسن، والاحترام المتبادل، والتكاتف حسب المواهب والقدرات المتنوعة، للنهوض بالعرف الحسن والمعرفة الرشيدة؛ وفاءً بالحاجات، وتعاوناً على التكاليف والأعباء، فبناء الفرد لذاته، ونضوجه الشخصي تعرُّف وتعارُف، وتكوين الأسرة وتربية الأبناء واستكمال شخصياتهم، تعرُّف وتعارُف، وتفاعلات المجتمع تعرُّف وتعارُف، وعلاقات الشعوب والقبائل الإنسانية تعرُّف وتعارُف، ولن يتحقق ذلك تحققاً فاعلاً إلا بالمعرفة الصحيحة القائمة على نهج الإسلام وصبغته، فهو أصل التعارف وأساسه.

المحور الثاني: دوائر النظرية وتسلسلها المعرفي.

إنَّ الحديث عن هذه مفاهيم النظرية الثلاثة (المعرفة، والتعارف، والاعتراف) يتطلب إدراكاً للتسلسل المعرفي والمنطقي بينها وذلك بتتبع مختلف أنواع الحوار ودوائره.

وقد أشار الشيخ العلامة علي يحي معمر رحمه الله إلى أنّ نظرية المعرفة والتعارف والاعتراف مبنية في النسق الإسلامي على حوار متنوع ومتعدد ومتداخل ومتصل، يبدأ ويدور في

([2]) انظر ابن منظور، محمد بن مكرم: **لسان العرب**، دار صادر: بيروت، ط 1، ج9، ص236، 237.

دوائر كثيرة متداخلة يمكن حصرها في ثلاث دوائر رئيسة لو تمسك بها المسلمون لنعموا بالتواصل والتواد والتراحم فيما بينهم، هذه الدوائر هي: المعرفة والتعارف والاعتراف، وقد جعلها الشيخ وسائل لوحدة الأمة وحفظ الأخوة والتسامح بين أفرادها وجماعاتها، فقال: "أنَّ المذهبيَّة في الأمَّة الإسلاميَّة لا تتحطَّم بالقوَّة ولا تتحطَّم بالحجَّة. ولا تتحطَّم بالقانون، فإنَّ هذه الوسائل لا تزيدها إلاَّ شدَّة في التعصُّب، وقوَّة ردِّ الفعل؛ وإنَّما تتحطَّم المذهبيَّة بالمعرفة والتعارف والاعتراف، فبالمعرفة يفهم كلّ واحد ما يتمسَّك به الآخرون، ولماذا يتمسَّكون به. وبالتعارف يشتركون في السلوك والأداء الجماعيّ للعبادات. وبالاعتراف يتقبَّل كلٌّ واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحقِّ الذي يعطيه لنفسه (اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ) وفي ظلِّ الأخوَّة والسماح تغيب التحدِّيات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحِّح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنَّة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهباً أو اعتنقت مذهباً"[3].

الدائرة الأولى: المعرفة التي تؤدي أولاً إلى الحوار مع الذات في إطار الذات بوصفها فردا وجماعة، ثم الحوار مع الآخر ثانياً، أي يفهم كل واحد ما عنده وما يتمسك به الآخرون، ولماذا يتمسكون به [4].

في هذه الدائرة يتحاور المسلم مع نفسه ليكتشف حقيقة توجهه، ومدى مصداقية المنهج الذي يتبعه، ومدى التزامه به في قلبه ونفسه وفؤاده وجوارحه وأفعاله وسلوكياته إلخ، فإذا كان يعاني من إشكاليات فكرية فحلها هو ربط عالم الشهادة بعالم الغيب، ووصل المخلوق بالخالق، والربط بين الدنيا بالآخرة، وما بين الحياة بالممات، وما بين الفناء والخلود، فتنحل تلك الإشكالات التصورية؛ ولذلك كانت الضرورة داعية إلى إعادة صياغة الشخصية الإسلامية وتصورها الصحيح حتى يكون تصوراً قرآنياً مبنياً على الأدلة اليقينية لا على الأوهام والأفكار الخاطئة، وبذلك يصبح المسلم قادراً على اكتشاف هويته وشخصيته، فيصبح متبوعاً لا تابعاً، قائداً لا منقاداً، مؤثراً لا متأثراً [5].

([3]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، مكتبة الضامري، السيب: سلطنة عمان، ط3، 2014م،ص2.

([4]) انظر معمر: المرجع نفسه، ص 2.

([5]) انظر الخليلي، أحمد بن حمد: **لقاءات في الفكر والدعوة**، أعده ورتبه: فهد بن علي بن هاشل السعدي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 2008م، سلطنة عمان ص 325.

الدائرة الثانية: التعارف الذي يؤدي إلى الحوار مع الذات في إطار حضور الآخرين، وهو التعارف الذي يشتركون فيه من حيث السلوك والأداء الجماعي للعبادات [6].

وفي هذه الدائرة يتحاور المسلم مع ذاته في تنوع مستوياتها، لكن في حضور الآخرين؛ أي في حضور جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، والأجناس والجماعات الأخرى المغايرة له في الرؤية والعقيدة والتصور. وهنا يجب أنْ يكون كل من المتحاورين مطلعاً على ثقافة الآخر ومنطلقاته العقدية والفكرية.

وكذلك يتحاور المسلم مع أخيه المسلم بعيداً عن اللزوميات الكلامية وسبق إصدار الإحكام والتوجس والتشنج من الآخر أو التشنيع عليه حتى يخلق مجالاً حيوياً للتأثير في الآخرين " فإذا استقام التاريخ الإسلامي، وعَرَضَ كلُّ أصحابِ فرقةٍ من فرق الإسلام عقائدَ تلك الفرقة، وأحداثَ تاريخها، ومدى ارتباطها بمصدرها الأول عرضاً واضحاً صريحاً، وأُزيلتْ عنها ما ألصقته بها الدعاية المغرضة، أو الجاهلة، أو المستغفلة، وجد جميع أصحاب الفرق في جميع مواطن الإسلام، أنهم متشابهون كل التشابه، فهم منطلقون لتحقيق الرسالة الخالدة التي أُنيطت بهم، في طريق واحدة، أوفي طرق متشابهة، منتهية إلى غاية واحدة"[7].

فالقضيةَ هنا هي قضيةُ تعارفٍ قائم على معرفة ما عند الآخر، وذلك باطلاع كل فريق على ما عنده للآخر، وإزالة الحواجز النفسية والاجتماعية التي فصلت الأُمة بعضها عن بعض ردحاً من الزمن، وأوجدت الوحشة، فإنَّ إزالة هذه الحواجز يُبدِّل هذه الأُمة بالوحشة والنفور ألفةً وتقارباً، وهذا الذي حصل فعلاً، عن طريق مؤسسات عديدة عملت على مدِّ الجسور بين فئات الأمة ليتم التعاون بينها بعد التعارف والتفاهم فيما بينها [8].

ومن ثم ينتقل المسلم بقيمه الحوارية إلى المستوى الحضاري العالمي حيثُ الحوارُ الشاملُ مع الثقافات والحضارات المختلفة والمتغايرة "فحيثما توجد المؤسسات الإسلامية فالجسور مُدّت، والعلاقات توطّدت، والتعارف حصل، وتبع ذلك التعاون"[9].

([6]) انظر معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 2.

([7]) معمر، علي يحي: **الإباضية في موكب التاريخ**، ص 19.

([8]) انظر الخليلي، أحمد بن حمد: **لقاءات في الفكر والدعوة**، ص 324.

([9]) الخليلي: المرجع نفسه، ص 324.

فلا قيمة للحديث عن حوار الحضارات إذا لم يسع أتباع كل حضارة ودين إلى التعرف أكثر على الحضارات الأخرى وفهم مكوناتها واستيعاب قيمها ومُثلها قصد تصحيح المفاهيم الخاطئة والمغلوطة التي تكون قد تكونت بفعل ظروف وعوامل تاريخية وإيديولوجية معينة.

إنَّ الإسلام يدعو أتباع وأبناء الحضارات والثقافات إلى أن يتعاملوا فيما بينهم على أساس الانتماء إلى أسرة إنسانية مشتركة، تتفاعل في إطارها مختلف الروابط الحضارية بين الأمم والشعوب، وهذا الأمر كفيل بنزع فتيل الأحقاد والكراهيات والعصبيات التي طالما أنهكت الإنسانية برمتها بفعل الحروب المدمَّرة والصراعات المنهكة التي أثرت بشكل كبير على مستوى التقارب بين الحضارات والشعوب حتى أمست متنافرة متباعدة.

فالتعارف كمبدأ إنساني حضاري سام له أكبر الدور في منع النزاعات والصراعات، فهو يقرب الأفكار والمسافات وينسج أواصر التعاون والتفاهم ويهدف إلى بناء أسس حوار حضاري مثمر وبناء.

الدائرة الثالثة: الاعتراف الناتج عن الحوار مع الآخر وفي إطار الآخر بوصفه فرداً وجماعةً، أو عن طريق تقبُّل كل واحدٍ منهم مسلك الآخر برضى، وإعطائه مثل الحق الذي أعطاه لنفسه، اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ فـ" يتقبَّل كلُّ واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحقِّ الذي يعطيه لنفسه ... وفي ظلِّ الأخوَّة والسماح تغيب التحدِّيات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحِّح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنَّة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهباً أو اعتنقت مذهباً"[10].

وهنا يتحاور المسلم مع الآخر المغاير، لكن في ظل نموذجه وتراثه وثقافته من أجل الحفاظ على هُويته وثقافته مخافةَ ذوبانها، وتحللها بفعل ضغط الثقافات والأنساق الأخرى، لا من أجل إقصاء الآخر أو محوه من على ظهر الأرض "ولن نصل إلى هذه الدرجة حَتَّى يعترف اليوم أتباع جابر وأبي حنيفة ومالك والشافعيّ وزيد وجعفر وأحمد وغيرهم مِمَّن يقلِّدُهم الناس أنَّ أئمَّتهم أيضاً يقفون في صعيد واحد لا مزيَّة لأحدهم على الآخرين إلاَّ بمقدار ما قدَّم من عمل خالص لله"[11]،

([10]) معمر: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 2.

([11]) معمر: المرجع نفسه، ص 2.

وبهذا ينجح المسلم في تحقيق حوارٍ مثمرٍ وفاعلٍ وبنّاءٍ مع الآخر، يصلُ إلى الاعتراف والتعايش والتفاهم، سواء أكان فرداً أم جماعة، فرقة أم مذهباً، مجتمعاً أم ثقافة أم حضارة.

وعندما يصبح حوار التعارف ثقافة وجزءاً من التربية العامة للمسلم، ويتحول إلى نمط في حياته، وقيمة حضارية في وجوده وسلوكه وتفاعلاته، يكون أكثر تأهّلاً لتحقيق الاعتراف ومن ثَمّ التفاعل مع الآخرين، من أجل تحقيق أهدافه الحضارية والاستخلافية، بوصفه مكلفاً بواجب الاستخلاف والإعمار والإنقاذ والشهود "فلا ينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ متقوقعاً علة نفسه، يُصرُّ على أنَّ ما يقوله هو وحده الحق، فالحق يعرف بالرجوع إلى الأصول من الكتاب والسنة النبوية الثابتة الصحيحة – على صاحبها أفضل الصلاة والسلام– لا بمجرد الدعاوى. ثم مع هذا نجد أنَّ علمائنا السابقين، كانوا حريصين كل الحرص على ما يوحد الصف، ويرأب الصدع، ويجمع الكلمة... فنحن لا ندعو أحداً إلى أنْ يتخلى عن مذهبه، سواءً من الناحية الفكرية، أو من الناحية الفقهية"[(12)].

"فالمعرفة هي الأساس، ثم التعارف؛ بحيث إنَّ كل فريق يُبدي ما عنده للفريق الآخر، ثم بعد ذلك يتمُّ الانسجامُ ما بين الجميع، فالأمةُ بحاجة إلى أنْ تأخذَ بهذه الوسائل للتوصل بمشيئة الله إلى الوحدة العامة الشاملة التي تجمع فئاتها وتجمع شتاتها"[(13)].

والمسلم يكون فاعلاً في الحوار الحضاري العالمي، كلما كان ممتلكاً زمام الحوار مع ذاته ومع الآخر، سواء في مجتمعاته هو أو في مجتمعات الآخرين، وسواء أكان أقلية أم أكثرية.

المحور الثالث: المنظور الإسلامي للنظرية.

تعدُّ نظرية المعرفة والتعارف والاعتراف من المفاهيم التأسيسية لصلة المسلم بالمسلم أولاً، ثم صلة هذا المسلم بالآخرين من أهل الكتاب، وأهل الأديان والملل والنِّحل الأخرى؛ لذلك لابد من توضيح الإطار النظري الشرعي لهذه النظرية، حيث يتأسس هذا الإطار وفلسفته وأبعاده الكبرى لها على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[الحجرات:13]، فاختيار الله تعالى في خطابه مصطلح

(12) انظر الخليلي، أحمد بن حمد: لقاءات في الفكر والدعوة، التقريب بين المذاهب الفكرية، ص 229، 230.
(13) الخليلي: المرجع نفسه، ص 343.

(التعارف) دون غيره مقصود؛ فإضافة لما ذكرنا من قبل، فإنه أشد ملائمة لطبيعة المجتمع الإنساني وارتقاء التعارف بين طبقاته شعوباً وقبائل وأمماً، إذ يحصل هذا التعارف "طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى... وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها... فكان هذا التقسيم نظاماً محكماً لربط الأواصر دون مشقة ولا تعذر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل ثم يبث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم"[14].

إن القرآن الكريم يؤسس لمبدأ التعارف بين الأمم والشعوب والحضارات (ليتعارفوا), فالتنوع بين الناس إلى شعوب وقبائل وامتدادهم وتكاثرهم على ربوع الأرض لا يعني أن يتفرقوا أو تتقطع أواصرهم ويعيش كل شعب في عزلة عن الشعوب الأخرى، كما لا يعني هذا التنوع أن يتصادموا ويتنازعوا من أجل الثروة والقوة والسيادة، وإنما ليتعارفوا .

كما تتأكدُ بناء على هذا الخطاب قيمٌ عديدةٌ مثل: "قيمة الإنسان وتكريمه"، و"قيمة التفاعل والتواصل الإنساني من أجل الحق"، و"قيمة التقوى" بوصفها مقياساً للتفاضل والتكريم، كما يؤكد ذلك النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: "يا أيها الناس: إنَّ ربكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، ألاَ لا فضلَ لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"[15].

ويتأكد لدينا أيضاً قصدية وخصوصية اختيار مصطلح (التعارف) ومتطلباته لفعالية مفهومه في إدراك الغاية من مستلزماته، كالمعرفة والاعتراف المؤدي إلى التعاون وتبادل المنافع ونبذ حب الغلبة والاستئثار والأنانية والاستعلاء والتصادم والصراع. ثم إنه بالغ بِكُلِّ إدراكَ ما لدى الآخر من خير يرغب أنْ يشاركه فيه، وما يتخبط فيه من مشكلات يقترح عليه حلولها، أو شرور تحيط به

([14]) ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، الجزائر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب والدار التونسية للنشر، 1984، ج26، ص259،260.

(15) أخرجه البيهقي، من حديث جابر رضي الله عنه، في خُطبة الوداع، وقال: في هذا الإسناد بعض من يجهل، انظر **شعب الإيمان**، باب في حفظ اللسان، فصل، ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، ج11، ص130.

يرشده لمضارها ويدله على سبيل الخلاص منها. كل ذلك يتأتى بحسب مستويات الحوار ومنهجيته العلمية والفلسفية التي ينساب عبرها التعارف.

ومن هذا المنطلق نجدُ أنَّ "التعارف" بوصفه مفهوماً إسلامياً تأسيسياً للعلاقة مع الذات ومع الآخر، يخصُ العالم كله، بشعوبه وقبائله، ويدور حول قيمة "التكريم الرباني" للناس، وهو من باب أولى يخص المسلمين فيما بينهم، فيحكم بينهم بقاعدة التقوى بوصفها معياراً وميزاناً ربانياً يُميَّز على وفقه العمل الصالح والعمل الفاسد، " فبالمعرفة يفهم كلّ واحد ما يتمسَّك به الآخرون، ولماذا يتمسَّكون به. وبالتعارف يشتركون في السلوك والأداء الجماعيّ للعبادات، وبالاعتراف يتقبَّل كلٌ واحد منهم مسلك الآخر برضىً ويعطيه مثل الحقِ الذي يعطيه لنفسه (اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ)' وفي ظلِّ الأخوَّة والسماح تغيب التحدِّيات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحِّح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت في الكتاب والسنَّة..."[16].

وعلى هذا الأساس يشعر الجميع أنهم يسيرون في خط واحد، ويهدفون إلى غاية واحدة، وهي خدمة الإسلام، ورفع كلمة الله، وبالتالي يؤمنون بضرورة الترفع عن سفاسف الأمور، وعدم البقاء في الأمور الهامشية، والارتفاع إلى مستوى عظمة الرسالة.

وبناء على ذلك ندرك أنّ هذه المفاهيم تدور حول معرفة الله سبحانه وتعالى، وتكون تجسيداتها العملية الواقعية على مستوى قيام الإنسان بواجب الاستخلاف والعمران والحضارة المستقيمة على الطريقة، كما أمر الحق تبارك وتعالى، ومن ثَم ندرك أنَّ التعارف في مستوياته المتنوعة يهدف إلى التلاحم والتآلف والتواصل والتعايش والتدافع والتداول بين الناس، وليس معنى هذا أنْ يستعلي الإنسان على الآخرين بنسبه، فلا قيمة لهذا النسب إنما يتعارف المؤمنون بما يكون بينهم من صلة التقوى لا بالأحساب والأنساب، فكل ما يكون من خُلةٍ في هذه الدنيا ومن تواصلٍ بين الناس يتحول يوم القيامة إلى عداوة ساخنة، وإلى قطيعة بينهم إلا ما يكون بين عباد الله المتقين، فأولئك كما تواصلوا في هذه الدنيا بتقوى الله سبحانه وتعالى يظلون متواصلين يوم القيامة بالتقوى، وعندما التزم المسلمون هذه الآداب كما شرعت لهم، وهذه العبادات كما فرضها الله سبحانه وتعالى، وقاموا

([16]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص2.

بحقوق هذه الآداب، عندما قاموا بذلك كان لهم التمكين وكان لهم النصر في الأرض، وتآلفت قلوبهم وتناصروا على البر والتقوى [17].

فالإطار النظري لهذه المفاهيم يجعلها ضابطاً يضبط علاقات الناس وتواصلاتهم وتفاعلاتهم وحواراتهم بجملة من القيم والمبادئ التي تنبع من الرؤية الإسلامية، وهذا كما يجعلها قيمة أساسية من قيم عالمية الإسلام وخصائصه العامة الأخرى.

المرتكزات والمبادئ الشرعية للنظرية

عندما تُؤسس نظرية المعرفة والتعارف والاعتراف بكل قيمها وأخلاقياتها وضوابطها وشروطها، بوصفها مقصداً من مقاصد الوجود الحضاري للبشرية على "منظومة التقوى" ومفرداتها الأخلاقية، والتشريعية، والعملية، والتربوية، فإنها تتحول إلى إطار لنفي الخبث، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإزالة الأحقاد التي خلفتها رواسب التعصب والإقصاء، واستبدالها بالتسامح والتفاعل والتواصل، الذي من خلاله يتعارف الناس ويتفاعلون من أجل تحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية، كما أمر الحق تبارك وتعالى، فيعيشون إخوة متحابين، وهذا لا يتحقق إلا إذا أسندته **مرتكزات ومبادئ** تتناسب مع سمو وحسن مقصد هذه المفاهيم والرؤية الإسلامية، ويمكن إجمالها فيما يلي:

1. **وحدة الأصل الإنساني التي عبرت عنها آية الحجرات**، وأكدتها الأحاديث الشريفة. فوحدة الرحم الأولى يفترض فيها أن تثير في الإنسان تجاه أخيه الإنسان مشاعر نبيلة سامية تتعلق بهذه المفاهيم الثلاثة.
2. **مبدأ وحدة الإنسانية الجامع**، وهي نزعة إنسانية ظلت مطمح البشرية في أغلب مراحل تاريخها، خاصة حين تُظلها حضارة، فحامت حول هذا المقصد مذاهب فلسفية وديانات وفنون؛ لأنه تعبير عن حاجة فطرية في الإنسان، كما صرح بذلك القرآن الكريم: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[البقرة:211]؛ فإن يكن اختلافهم وتفرقهم وتنازعهم حصل بعد تنازع الهداية والضلال

([17]) انظر الخليلي، أحمد بن حمد: **شعائر الإسلام ودورها في وحدة الأمة**، محاضرة ألقاها سماحته في جامع إزكي عصر يوم الخميس 28/محرم / 1423هـ الموافق 2002/4/11م.

لهم، فإن في التعارف والاعتراف ما يهديهم إلى نوع من التقارب والتعايش الذي يذكرهم بأصلهم الأول ويرشدهم إلى دلائل الهداية وأسبابها.

3. **الاختلاف ظاهرة طبيعية وسنة كونية؛** قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} [الروم:21]، فالاختلاف في الألوان واللغات آية من آيات الله تعالى، ومما يتسق مع مقتضى هذه الآية والسنة الكونية الإلهية مُعْتَقَداً وسلوكاً وعملاً التسليم بالحقيقة الواقعية والبحث عما في جوهر الإنسان، روحه وإنسانيته مما يقربه من أخيه الإنسان، وينفع كل منهم الآخر بما قُدِّر له من خيرات يعيش عليها أو ابتكار أو علم اهتدى إليهما.
4. **حرية الاختيار**، فقد أسس الإسلام قبول عقيدته على حرية الاختيار، فلا إكراه في الدِّين، فمن باب أولى لا إكراه في الرأي والاختيار، حيث خلد سبحانه في كتابه الكريم قبول الرأي الآخر وحكم بأنَّ قراءته ذِكر وَبَركة تُزكِّي قارئه وترفع شأنه عند خالقه [18].

وإذا بدت نية فرض الاختيارات فلن يستطيع التعارف أن يمضي أبعد من أشواطه الأولى وبداياته؛ لذلك كان حرية الرأي والاختيار ركيزة فكرية ذات أثر نفسي بعيد ينعكس إيجاباً على مسار التعارف القائم على المعرفة، والمؤدي إلى الاعتراف بالآخر.

ومن خلال هذا العرض المقتضب للمنظور الإسلامي لنظرية المعرفة والتعارف والاعتراف المبني على الحوار الهادف المثمر يتبين أنَّه يصلح أنْ يكون إطاراً للتواصل والحوار والتفاعل بين المسلمين والناس أجمعين، فعندما ينضبط الحوار بإطار المعرفة والتعارف، الذي يحقق وجود الآخر ولا يلغيه، ويؤسس العلاقة والشراكة والتواصل معه فلا يقطعها أو يمنعها أو يقاومها، عندئذٍ نجدُ أنَّه تلقائياً ينزع نحو الاعتراف بالحق والتدافع بدل التمسك بالباطل والصراع، وهذا يؤكد لنا أنَّ التعارف القائم على المعرفة هو أحد أرقى المفاهيم، وأكثرها قيمة وفاعلية، ومن أشد وأهم ما يحتاج إليه الأفراد والجماعات والأمم والحضارات، وهذه دعوة نبيلة للإسلام لأنْ يكتشف كل منا الآخر ويتعرف عليه، وتكتشف وتتعرف كل أمة وكل حضارة على الأمم والحضارات الأخرى، بلا سيطرة أو هيمنة، أو إقصاء أو تدمير.

([18]) انظر نويري، إبراهيم: **مركزية الحضارة الغربية ومستقبل الحضارة في القرن 21**، محاضرة مخطوطة.

إنَّ المبدأ القرآني في الدعوة إلى المعرفة والتعارف بين الشعوب والحضارات يهدف إلى تجاوز المصالح النفعية المحكومة بالأبعاد السياسية والاقتصادية، ويرمي أيضا إلى استبعاد وإقصاء المعايير القومية الضيقة في التفاضل بالأعراق والأنساب واللغات. لكن بالمقابل لابد من اعتبار الأسس الاجتماعية والأخلاقية القائمة على منظومة القيم والآداب لأنها الوحيدة الكفيلة باستمرار وتقوية أواصر ووشائج التقارب والتفاهم، ثم التعارف، فهي قواعد في التفكير والسلوك يحكمها الضمير الإنساني السليم ويتفق على نظامها العام كل من كان سوياً رشيداً.

جوانب المنظور الإسلامي للمفاهيم الثلاث:

يمكن أن يُدرس المنظور الإسلامي لنظرية المعرفة والتعارف والاعتراف من جوانب متعددة، ويمكن أنْ يُنظر إليها من زوايا نظر متكاملة ومتداخلة، وفيما يلي أهم هذه الجوانب.

الجانب الأول: المعرفة والتعارف والاعتراف رسالة وواجب ينبغي أنْ يقوم به المسلم:

تُعدُّ المعرفة والتعارف والاعتراف رسالةً وواجباً ينبغي للمسلم أنْ يقوم به إزاء نفسه ومجتمعه وأمته والآخرين الذين يعيشون معه في هذا العالم، من أجل التعريف بنفسه، ودينه، وحضارته، وقد حدد الشيخ علي يحي معمر طبيعة هذه الرسالة وكونها من أوكد الوجبات عند علماء الأمة الذين تركوا في حياة الإسلام أثراً عظيماً "فكانوا يحاولون بما أوتوا من جهد وقوة، أنْ يوجهوا قلوب الناس إلى الإيمان الحق بالله، والفهم الحق لأسرار الشريعة والعمل الحق بما جاء به الإسلام... وهبوا أنفسهم وجهودهم للعلم، فكانوا يحرصون على إفادة الناس في كل مجتمع: في المسجد، والشارع، والسوق ... لذلك كانوا حرّاصاً أشد الحرص أنْ يكون ما يعلمونه حقاً ثبت لهم بالدليل، وصح عندهم بالبرهان، فإنَّ هداية الناس إلى دين الله، وتعليمهم أسرار شريعته، وتنوير قلوبهم وبصائرهم بنور الله، أفضل القربات عندهم، وأزكى الأعمال لديهم، وأحب الواجبات إلى نفوسهم"[19].

الجانب الثاني: المعرفة والتعارف والاعتراف إطارٌ للحوار والتواصل والتفاعل والتكامل والتعلُّم:

سبق أنْ أشرنا إلى أنَّ المعرفة والتعارف والاعتراف وسيلة من الوسائل المهمة في تحقيق أهداف الإسلام ومقاصده الكبرى، وذلك بوصفه إطاراً للحوار والتواصل والتفاعل والتكامل والتعلُّم؛ يجمع كل العناصر والجوانب المتداخلة والمتكاملة له، بمعنى أنَّ هذه المفاهيم الثلاث أوسع وأشمل

([19]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص199.

من تلك الأطر, فالحوار قد يكون هادفاً ومثمراً لأجل المعرفة والتعارف، وقد يكون لمجرد المِرَاءِ والجدل والتنابز والتنافر، أما التواصل فقد يكون بتعارف أو بدون تعارف، فالاختلاف الثقافي والعرفي والدِّيني والمذهبي باقٍ حتى قيام الساعة، والحكم فيه يومئذ لله، والتعامل مع بقائه لا يكون بإلغائه ولا بتجاهله، بل بالتعرّف إليه وتقبّله واحترامه كسنّة دائمة من سنن الكون.

فعندما يكون الحوار مثمراً مؤسساً على تكريم الإنسان وتقوى الله سبحانه وتعالى، يصبح الحوار محكوماً بمنظومة من القيم والأخلاقيات والمقاصد التي تحاول أنْ تنأى به عن الاستغلالية، والاستهزاء بالآخرين، وعدم احترامهم، والتكبر، وامتهان الآخرين وتسخيرهم ليكونوا وسائل لتحقيق مصالح خاصة، ونشر الفساد والظلم وسفك الدماء بغير وجه حق، فإذا اختفت تلك المنظومة القيمية الخُلُقية في الحوار استقوى منطق القوة، وتضخم النزوع نحو الصراع، والعنف المقنن بوصفه فلسفة، ومنطقاً للتعامل مع الآخرين، وهنا يتحول الحوار إلى نفي للآخر، وإلى صدامٍ معه وتعدٍّ عليه، وإلى فرضٍ لمنطقِ الذاتِ وقيمها وأهدافها على الآخرين، سواء اقتنعوا أم لم يقتنعوا، يقول الشيخ علي معمر:" لكن هذه الحرية الدينية التي فهم حدودها الأقدمون، وهذه السماحة الإسلامية، التي أتاحت لتلك العقول الجبارة أنْ تحلق في أجواء البحث والاطلاع والاستطلاع– أصبحت فيما بعد سبباً من أسباب الشحناء والخلاف والتنابذ، عندما سيطر الجهل على الناس، وأعمى التعصب الجامد نور البصائر، ولعبت أهواء الحكم والسياسة بالمفاهيم الحقيقية لتعاليم الدين القويم، واستغل الطغاة والجبابرة من الحكام، أطماع ضعاف النفوس والعقائد، ممن تثق بهم الشعوب، وتكل إليهم أمر دينها، فانطمست الروح الحية، وأصبحت الحقائق الدينية، والأصول التي تبنى عليها العقائد والأعمال، مظاهر جدلية للقول لا للعمل، وميدانا يتسابق فيه طلاب الشهرة العلمية للظهور لا للحق، وللناس لا لله"[20].

وهنا يفقد الحوار قيمته الحضارية والتربوية الإنسانية المستمدة من روح الشريعة ومبادئها ومقاصدها العامة، ويتحول إلى أداة ووسيلة فحسب في يد من يريد استغلاله لمطامحه أو ثقافته أو لمذهبه أو حزبه أو غير ذلك؛ ولهذا نجد الإسلام يضبط مسألة الحوار مع الذات ومع الآخرين ضمن نسق تعارفي إنساني هادف، يقول سماحة الشيخ الخليلي: "ولا ريب أنّ الأمة الإسلامية

([20]) معمر، علي يحي: **الإباضية في موكب التاريخ**، ص 49.

مقومات اتحادها كثيرة، وهي قائمة بمشيئة الله سبحانه وتعالى، وإنما غلبة العصبيات والجهل، أججت الأحقاد في نفوسها وهي عوامل مدمرة لاتحادها منذ قديم الزمان، والموروثات الفكرية الخاطئة أدّت بالأمة إلى الاختلاف والتنازع والتشتت، وقد تعمَّقت هذه المؤثرات في نفوسهم إلى أنْ أصبحت كل طائفة منهم تحرص على أنْ تستمسك بمواريثها مهما كان خطؤها وبعدها عن هدي الإسلام، ولا تحاول أنْ تعرض هذه المواريث على الأصول التي يجب أنْ يُرْجعَ إليها، وهي كتاب الله أولاً، ثم الثابت الذي لا خلاف فيه من السنة الصحيحة..." [21].

الجانب الثالث: التعارف معيار وميزان لقياس علاقات الناس:

إنَّ التعارف معيارٌ وميزانٌ لقياس علاقات الناس وصلاتهم وتفاعلاتهم ومدى تحقيقهم لمراد الله في وجودهم واستخلافهم الأرضي، والكتاب والسنة هو المقياس الحقيقي لمعرفة مقدار صحة الأشياء وصوابها، وذلك باعتباره مقياساً لا تشوبه أيُّ شائبة فهما الطريق الأمثل للتعارف والاعتراف، فهما: "المقياس الحقيقي الذي نقيس به الخطاء والصواب، والميزان الصادق الذي نزن به العقائد والمذاهب والآراء والأعمال، فنعرف مقدار صحتها، ومدى قربها أو بعدها من الصواب، فإنما هو الميزان الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم :((لقد تركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتابَ اللهِ وسنتي)) [22].

هذا هو المقياس الصحيح، الذي لا يتغير، ولا يتهم، ولا يخطئ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. من أراد أنْ يعرف صحة عقيدة أو زيغها، وقربها من الحق أو بعدها، فليعرضها على هذا المقياس، وليحكم حينئذ بما يتبين له..." [23].

الجانب الرابع: التعارف قيمة أخلاقية يتجسد من خلالها التوافق والانسجام:

([21]) الخليلي، أحمد بن حمد: **لقاءات في الفكر والدعوة، الوحدة الإسلامية**، ص 250.

([22]) رواه البيهقي في السنن بصيغة: «أني قد خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا لن تَضِلُوا بعدَهُمَا ما أَخَذتُم بهمَا أو عَمِلتُم بهمَا كِتَابَ الله وسُنَّتِي ولن يَفْتَرقَا حَتَى يَردَا علَى الحَوضِ» انظر **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز: مكة المكرمة، ط 1994م، ج10، ص114. ورواه الربيع بن حبيب بصيغة «خَلَّفْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا لَمْ تَجِدُوهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَفِي سُنَّتِي، فَمَا لَمْ تَجِدُوهُ فِي سُنَّتِي، فَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ» انظر **الْجَامِعُ الصَّحِيحُ مسند الإمام الربيع بن حبيب**، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ومكتبة الاستقامة: روي، مسقط– سلطنة عمان، ج1، ص 14.

([23]) معمر، علي يحي: **الإباضية في موكب التاريخ**، ص 40.

يعدُّ التعارف الذي يؤدي إلى الاعتراف والتحاور والتواصل بين المسلمين وغيرهم قيمةً أخلاقية إسلامية إنسانية عالية يتجسد من خلالها التوافق والانسجام والتساكن والتعايش والتعاون على البر والتقوى بين المسلمين رغم اختلافهم فيما بينهم وبين غيرهم، كما أنه يؤدي إلى تكريمهم، واحترامهم لقدرات وإمكانات الآخرين.

فيجب علينا ألا ننظر إلى التعارف بوصفه غاية في حد ذاته، بل وأيضا باعتباره وسيلة للتواصل حيث يلتقي مفهوم الاعتراف الموصل إلى التآلف والتواصل والتراحم مع مفهوم التعارف في نسق معرفي مشترك. فمجموع هذه الأطر يتضمن بناء الجسور والوصول إلى الآخر وتجاوز الذات.

يقول الشيخ علي يحي معمر: " ولكنني أحب أن ألغي تلك المسافات الطويلة التي خلقتها بين فرق الأمة أقلام مسيرة لتعود كلّ فرقة إلى موقفها القريب تمسك يدها وتتعاون معها على البرّ والتقوى، ولأصحّح بعض تلك الأخطاء التي ارتكبتها الأقلام المدفوعة في غفلة من الزمن ضدَّ فرق من الأمة فقطعت بينها الوشائج، وأفسدت العلاقات وحكمت فيما بينها أهواء الساسة والمتسلطين ثُمَّ مكائد المبشرين والمستعمرين" [(24)].

فالتعارف هو الذي يحدد مستويات الحوار والتعاون، ويثريهما ويثمرهما، هذا إلى جانب الدور الوقائي الذي يلعبه في منع النزاع والصدام على مستوى الأفراد والجماعات والأمم والحضارات؛ لهذا فإن اختيار مفهوم التعارف الذي يصل بنا إلى الاعتراف المؤدِّي إلى التآلف والتواصل والتعاون على البر والتقوى هو أكثر دقة وأكثر فاعلية.

المحور الرابع: ضوابط النظرية وأهدافها.

أولاً: ضوابط المعرفة والتعارف والاعتراف:

سبق وأنْ أشرنا إلى جملة من القيم والأخلاقيات، التي تضبط الحوار القائم على معرفة ما عند الآخر حتى يكون مثمراً ومن ثَمَّ يُؤدي إلى التعارف والاعتراف، وينبغي للمتحاور –من أجل

(24) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 424.

التعارف للتآلف والتسامح ومن ثم الاعتراف لا للجدال والتخاصم والتنافر – أنْ يكون مُخلصاً متفاعلاً تحكمه قيم الإخلاص، والصدق، والأمانة، والحكمة، والحق، والموضوعية.

ولا شك أنَّ ضبط إطار هذه المفاهيم الثلاث "المعرفة والتعارف والاعتراف" يحدد لنا أفق الحوار وامتداداته، وغاياته، ومعانيه، وقيمه، يتأسس أصالة على تكريم الآخرين واحترامهم، والمساواة والتفاعل معهم، وعلى عدم الجهل بالآخر، والاكتفاء بالمعرفة السطحية التي لا تعطينا النظرة المتكاملة والواضحة عن الآخر، وإنما محاولة الإقناع بالحجة، والدليل، والبيان، والتبليغ، والدعوة بالتي هي أحسن، والإصلاح والإرشاد.

وضمن ضوابط إطار المعرفة والتعارف والاعتراف" بكل قيمها، وأخلاقياتها، نستطيع أنْ نضعَ وسيلة الحوار في سياقها الصحيح، ونُحدِّدَ لها الهدف المناسب، ونضعَ لها الشروط الصحيحة، والمنظومة الأخلاقية والقيمية التي ينبغي أنْ تحكمَه ليكونَ مثمراً، ومحققاً لمقاصد الناس ومصالحهم المشروعة.

وبذلك نبتعد عن كل ما يؤدي إلى العصبية والجهل والتشاحن والتباغض والفرقة والتشتت؛ فيغيبُ ويختفي الحوارُ المثمرُ، وفي هذه الحالة مهما التجأنا إلى الحوار من أجل التعارف والاعتراف، فلن نصل إلى النتيجة المرجوة له، نعم قد نصل إلى التسامح المبني على فوقية المتسامِح تجاه المتسامَح معه؛ لأنَّ البعضَ يعدُّ التسامح إهانة للآخر.

لذلك بنى الشيخ علي يحي معمر نظريته على المعرف والتعارف والاعتراف بين المذاهب والفرق الإسلامية، ولم يبنها على الحوار والتسامح؛ لأنَّ علاقة المسلمين فيما بينهم علاقة إيمانية، توحدهم تحت بوثقه الإيمان بالله الواحد الأحد، وليست علاقة تسامحيه، وشتان بين العلاقة القائمة على الإيمان، وتلك القائمة على الحوار التسامح.

فالعلاقة الأولى: نديّة تقوم على الاعتراف بالحق واحترام الاختلاف نتيجة للمعرفة والتعارف.

والعلاقة الثانية: فوقية، تقوم على إنكار الحق والاستعلاء على المختلَف معه، فلن يعترف أحدٌ بالآخر ما لم تصحح بعض المصطلحات والمفاهيم الخاطئة العالقة في أذهان أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية، وفي ذلك يقول الشيخ علي يحي معمر: "وقد كانت العصبياتُ المذهبية وأصابع السياسة، وبُعد بعض المسلمين عن بعضٍ، وجهلُ أهلِ كلِّ مذهبٍ بما عليه الآخرون، حواجزَ تحولُ دون تعرُّف المسلمين بعضهم ببعض. أمَّا الآن – وقد اختلط المسلمون بعضهم ببعض وعرف الكثير

منهم الكثير عن الآخرين – فإنَّه ينبغي أنْ تختفي بعضُ المصطلحات أو بعض المفاهيم، وتنشأ بدلاً منها مفاهيم أو مصطلحات أخرى، تكون أقربَ إلى توحيدِ جميع صفوف المسلمين وتوحيد كلمتهم. فلا معنى أبدًا أنْ يأتيَ إنسانٌ يسهل عليه تماماً أنْ يستخفَّ بأحكام الله فيرتكِبَ ما نهاه عنه، ويهمل ما أوجبه عليه، ثمَّ يزعم – في تبجح ظاهر – أنَّه سنِّي أو من أهل السنَّة؛ فإذا قابله إنسانٌ آخر لا يتَّفق معه في المذهب رماه بأنَّه مُبتدعٌ رغم الصلاح والتقوى، والحقيقة عكس ما يقول"[25].

ثانياً: أهداف المعرفة والتعارف والاعتراف.

لما كان مفهوم التعارف الإسلامي بدوائره وجوانبه المختلفة مفهوماً إنسانياً شاملاً لكل البشرية دون استثناء، ولما كان إطاراً أخلاقياً يضبط علاقات الناس وتواصلهم وتفاعلهم وحوارهم بجملة من القيم والأخلاقيات والمبادئ، فإن هذا التعارف يعدّ قيمة أساسية من قيم عالمية الإسلام وخصائصه العامة الأخرى.

فإذا كان الإسلام عالمياً، وواقعياً، ومتوازناً، ومتكاملاً، وإنسانياً، فإنَّ هذه العالمية لا يمكن أن تتجسد على حقيقتها، ولا يمكن أن تمارس حق ممارستها إلا في ظل إطار التعارف الإسلامي الذي يدعو إلى التكريم، والسّلم، والعدالة، والمساواة، والتسامح، والحرية، والعقلانية، والتشارك، والتساكن، والتآلف.

أهم الأهداف والغايات التي يسعى لتحقيقها وفق الرؤية الإسلامية [26]:

نستطيع أنْ نضبط مسار التعارف، وأنْ نرصد أهم الأهداف والغايات التي يسعى لتحقيقها وفق الرؤية الإسلامية في النقاط التالية:

1- **التقارب والتسامح:** فالتعارف الإيجابي المبني على معرفة الآخر هو الذي يبذل فيه كلُّ طرف أقصى جهوده للتعرف على ما يقرِّبه من الطرف أو الأطراف الأخرى التي تشاركه التطلع نفسه، فمن شأن البحث المخلص والموضوعي عن هذه الأسباب أنْ يمدَّ أرض الوفاق بين الحضارات والشعوب والقبائل، فتتشبع الإرادات بقابلية التجاوز والتسامح.

([25]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 317.

([26]) انظر: مراح، محمد: **رؤية إسلامية لتعارف الحضارات**، بحث منشور في الإنترنت.

2- **التعايش السلمي:** يتطلب هذا الهدف تعميقاً بالغاً لفلسفة وأفكار السلام، وتفكيراً جاداً للخروج بالمسألة من حسابات ومصالح السياسيين والعسكريين، واصطناع جماعات الضغط من دعاة السلام العالمي العادل في كل حضارة بل في كل مجتمع، فتسود المجتمع الدولي ثقافة حضارية تمنح فكرة السلام صورتها الحقيقية؛ بأن تضمن وضعها في ذمة المبادئ [27].

3- **معرفة الآخر على حقيقته وتصحيح الصورة المسبقة عنه،** فكثيراً ما رسمت الحضارات صوراً نمطية لغيرها من الحضارات، فلا تنظر إليها إلا من خلال تلك الصور، وتخضع حسابات التعامل معها لمقتضاها. وكثيراً ما تكون تلك الصور مغلوطة لأسباب لا ينفسح المجال لبحثها.

المحور الخامس: الاختلاف وعلاقته التكاملية مع المفاهيم الثلاثة للنظرية.

يعدُّ الاختلاف بين البشر، أصلاً من أصول خلقتهم؛ وذلك لأنه يحقق حكمة عُليا من استخلافهم في الأرض، كما يعدُّ مظهراً من مظاهر الإرادة التي ركبت في الجنس البشري، فاختلاف الاستعدادات بين أفراد هذا الجنس سنة من سنن الخالق، لتنويع الخلق – مع وحدة الأصل والنشأة – فهو من الأمور الطبيعية التي تأبى أنْ يكون هذا الجنس على مستوى واحد في التفكير والذكاء والميول والرؤى والقيم والموازين حتى لا تصطدم بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، لتقابل هذه الاستعدادات المختلفة وظائف الخلافة المختلفة المتعددة المتنوعة، فلا بد إذن من تنوع في المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف؛ ولا بد من اختلاف في الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف في الحاجات، فالحياة قائمة على ذلك التنوع "فلذلك تجدهم متفاوتين في المدارك، مختلفين في المشارب، متعاكسين في الأحاسيس، وإلى ذلك يرجع تعدد مذاهبهم في الأمر الواحد، وتباين تصوراتهم في القضية الواحدة {وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود:118،119]، وكثيراً ما تتأصل الحَمِيَّةُ في نفوسهم فلا تلبث مع استمرار الوقت وعوامل الزمن أن تتحول إلى عقيدة راسخة مستحكِمة في العقل والوجدان، مستعصية على الحجة والبرهان، لا تتزعزع لمحرك، ولا تنقاد لداع"

(27) ابن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت، دار الفكر، دون تاريخ ورقم الطبعة، ص187، 188.

[28]، فتتفاوت مراتب عقولهم ومداركها وبناء على هذا التفاوت تختلف التصورات، وتتباين وجهات النظر، وتتعدد المناهج، وتتنوع المعتقدات، وبقبول الهدي وإقامة مراد الله تعالى في هذه الحياة يكون منتهى ارتقاء العقل، وبذلك يكون التميز بين أفراد الجنس البشري، وما تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور إلا دليلاً على تفاوت مراتب العقول البشريّة، وأنَّ قبولها الهدي هو منتهى ارتقائها، فنعلم "أنَّ الاختلاف شنشنة قديمة في البشر، وأنّ المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جُبِلَ عليها النظام البشري"[29]، فنتعظ ونعتبر ونحذر مما وقعت فيه الأمم السابقة.

وقد اقتضت حكمةُ الله هذا النظام في العقل الإنساني؛ لأنّ ذلك أوفى بإقامة مراد الله تعالى من مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا الزائلة المخلوطة لينتقلوا منها إلى عالم الحياة الأبديّة الخالصة إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر، إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأمور، ومنها أمر الصلاح والفساد في الأرض وهو أهمّها وأعظمها ليتفاوت الناس في مدارج الارتقاء ويَسْموا إلى مراتب الزلفى فتتميز أفراد هذا النوع في كل أنحاء الحياة حتى يُعدّ الواحد بألف {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}[الأنفال: 37] [30]، فالاختلاف الذي انجر إليه البشر انجراراً ضرورياً كان ناموساً لتدرج الحضارة وتسهيل وصولها لأذهان البشر وأنَّ النهاية تعود إليه[31].

وهذا يؤكد على أنَّ الاختلاف عاملٌ من عوامل ثراء الفكر البشري الذي يبقى على الدوام موزعاً بين أفراد الجماعة الإسلامية بل والإنسانية جمعاء، وعلى أجيالها المتعاقبة وثقافاتها المتنوعة، وهو أيضاً أصلٌ من أصول الاجتماع الإنساني، وعاملٌ لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم، بالتناظر والتشاور وإعمالهم الرأي وإجلائهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب، فيأتي كل منهم بما قدحه زناد فكره وأدركته قوة بصيرته.

([28]) الخليلي، أحمد بن حمد: **لقاءات في الفكر والدعوة، رؤى فكرية**، ص 323.

([29]) ابن عاشور، محمد الطاهر: **التحرير والتنوير**، ج12، ص 192

([30]) ابن عاشور: المرجع نفسه، ج12، ص188.

([31]) ابن عاشور، محمد الطاهر: **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، ص 109.

ولذلك يرى الشيخ علي يحي معمر أن حركة الاختلاف بين المذاهب، من الخصائص الحيويَّة في الإسلام، ودليل انفساحه للعقول والأفهام، وأسُّ صلاحيَّته لكلّ زمان ومكان [32]؛ ويتأتى ذلك عندما يكون الحوار الفكري بتبادل الآراء، وبالنقد البناء الذي يعدُّ قوام الحياة الفكرية التي تصل بنا إلى التعارف والاعتراف ومن ثَمَّ يصبح التسامح بين فئات الأمة الإسلامية الواحدة واجبٌ دينيٌّ، وفرض وطنيٌّ واجتماعيٌّ، فالأمة هي أمة واحدةٌ مهما اختلفت في التصورات والاجتهادات [33].

وبهذا يكون الاختلاف – بالوصف الذي ذكرناه – رياضةً للأذهان، وتلاقحاً للآراء، وفتحاً لمجالات التفكير للوصول إلى سائر الافتراضات التي تستطيع العقول المختلفة الوصول إليها للتعارف والاعتراف بين المسلمين، لا كما يُخيّل إلى بعض الناس أن الخلافَ والاختلافَ مظهرٌ من مظاهر التفرقة والشقاق بينهم؛ وذلك بسبب علوقها في أذهانهم بالملابسات التاريخية التي عرفها المسلمون ضمن المدارس والمذاهب التي نشأت في فتراته التي كثر فيها التقليد، وتعصب المقلدين لها، بدافع الجهل، أو الدعاية السياسية المغرضة، فأساؤوا فهم الاختلاف وحقيقته، وشوهوا معنى المذاهب الفقهية "وقد كانت العصبيات المذهبية وأصابع السياسة، وبُعد بعض المسلمين عن بعضٍ وجهل أهل كلّ مذهب بما عليه الآخرون، حواجز تحول دون تعرُّف المسلمين بعضهم ببعض "[34]،

أضف إلى ذلك عدم تفرقتهم بين أنواع الخلاف، وعدَّها شيئاً واحداً يستوجب حكماً واحداً هو الذم؛ لذلك لابد من تحديد تلك الأنواع ومعرفة طبيعتها ومدى علاقة كل نوع بالتعارف، فالخلاف إما أن يؤدي إلى معرفة ما عند الآخر ومن ثَم التعارف والتواصل والتسامح، فيكون محموداً، وإما أنْ يؤدي إلى التعصب والتنافر والخصومة، وتجاهل الآخر وإقصائه فيكون مذموماً، فهو نوعان لا ثالث لهما.

النوع الأول: الاختلاف المحمود.

إنَّ الاختلاف في الفروع أمر طبيعي، اقتضته طبيعة الاستنباط وتفسير النصوص الشرعية، فهو اختلاف توسعة ورحمة، وهو: الاختلاف المحمود الذي يفتح الباب أمام صاحب كل واقعة

([32]) انظر معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 93.

([33]) الخليلي، أحمد بن حمد: **لقاءات في الفكر والدعوة، رؤى فكرية**، ص 323.

([34]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 317.

ليهتدي إلى الحل المناسب للوضع الذي هو فيه بما يتناسب ويُسر هذا الدِّين الذي يتعامل مع الناس من واقع حياتهم.

وقد حدد الشيخ علي يحي معمر هذا النوع من الخلاف، واضعاً الملامح المنهجية له قائلاً: "فقد تختلف أنظار المجتهدين في مسألة فيذهب كلٌّ إلى رأيٍ يعتمدُ فيه على دليل صحَّ عنده، وقد يعمل الناس بقول في جهة أو في زمان ثُمَّ يترجَّح غيره عليه فيعملُ به الناس ويموت القول الأوَّل أو يبقى في بطون الكتب فقط. وهذه حالة توجد عند جميع المذاهب، بل قد تقع للعالِم الواحد كما اشتهر للشافعي قديمٌ وجديدٌ، وكذلك غيره..." [35].

ضوابط الاختلاف المحمود عند الشيخ علي يحي معمر:

إن ضابط الاختلاف المحمود عند الشيخ علي معمر هو: ما لا ينقض أصول الشريعة، ولا يخالف نصوصها الناتج عن إعمال لأصولها ولأدلتها في الأحوال المناسبة لها، وحمل متعارضها بعضه على بعض، وهو الناتج عن الاجتهاد في طلب الحق؛ لأن أصل الاختلاف الاجتهادي لا يقتضي الفرقة والعداوة، وإنما يقتضي التعارف والاعتراف خاصة إذا بني على أسس علمية منهجية، ولذلك أرجع الشيخ مجموع صور وموضوعات الاختلاف إلى أساسين ليس فيهما ما يبرر الخصومة والقطيعة، فقال: "ولكن يهمُّني أيضًا أنْ أذكر أنَّ هذا الخلاف في مجموع صوره وموضوعاته إنَّمَا نتج عن أساسين: الأوَّل: فهم الأئمة والعلماء للأدلَّة في نصوصها الثابتة من الكتاب والسنَّة. الثاني: حرص أولئك العلماء والأئمَّة على إصابة الحقِّ في الفهم والاستدلال والعمل بالمقاصد الحقيقيَّة للشريعة الإسلاميَّة. وليس في هذين الأساسين اللذين نتج عنهما الخلاف ما يدعو إلى الخصومة أو القطيعة"[36].

فلا يذم الخلاف متى كان في المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد وإبداء الرأي، وهو ما لا يعارض أصلاً من أصول الشريعة، كالاختلاف في الفروع المبنيّة على اختلاف مصالح الأمَّة في الأقطار والأعصر، وهو المعبّر عنه بالاجتهاد [37].

([35]) معمر، علي يحي: المرجع نفسه، ص 6.

([36]) معمر: المرجع نفسه، ص 93.

([37]) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج4، ص 34.

وهنا يظهر لنا أثر التفريق بين نوعي الخلاف، "فمسائل الرأي هي المسائل التي ربما تعارضت فيها الأدلة، أو كانت أدلتها فيها أخذ ورد من حيث ثبوتُها، فقد يرى بعض العلماء ثبوت رواية من الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم ويرى آخرون عدم ثبوتها، فمن هنا يكون الاختلاف بينهم، ولا يفسق بعضهم بعضاً، ولا يضلل بعضهم بعضاً، ولا يقطع بعضهم عذر بعض؛ لأنَّ قطع الأعذار إنما هو مخالفة القطعيات، أما قضايا الفروع فالاختلاف فيها لا يفضي إلى الشقاق بل يجب التسامح فيه؛ فلذلك لا يُفسِّق ولا يُضلِّل الناس فيها بعضهم بعضاً، ونحن نرى إقرار النظر والاجتهاد في مثل هذه الأمور في القرآن الكريم وفيما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم "[38].

والمقصود من الفروع هنا المسائل الفرعية الشرعية التي تعتمد غالباً على الأدلة الظنية، سواء من حيث ثبوتها أم دلالتها، عقدية كانت أم فقهية، والمقصود بالأصول هنا: المسائل الأصلية أو كبرى المسائل العلمية وأمهاتها، والتي تعتمد غالباً على الأدلة القطعية، سواء من حيث ثبوتها أو دلالتها، وسواء أكانت هذه المسائل عقدية أم فقهية [39].

وقد حصر الشيخ علي معمر الخلاف الواقع بين المذاهب الإسلامية في دوائر ثلاث أساسية هي:

1. العقائد المتعلِّقة بالخالق سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله.
2. نظام الحكم وشروط رئيس الدولة.
3. الأحكام المتعلِّقة بالمسائل الفقهيَّة أصولاً وفروعًا.

منبهاً على أنَّ المسلمين اتَّفقوا عموماً على أصول هذه الدوائر وإن اختلفوا في التفصيلات والتفريعات، ثم قال: "فنحن لو استطعنا أن نجري مقارنة بين عدد المسلمين الذين يثيرون الجدل ويحدثون الخلاف ويدعون إلى تتبُّع فرقة دون فرقة أو مذهب دون مذهب ويحكمون على هذا أو ذلك بالضلال أو بالكفر ويأمرونهم باتِّباع مذهب أو الاستمساك به دون غيره ـ وبين عدد من يتَّبع

([38]) الخليلي، أحمد بن حمد: **الدِّين والحياة، الخطاب الدعوي لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي**، إعداد خميس بن راشد العدوي، المكتب الفني أجيال، ط1، 2007م، ص 145.

([39]) انظر العلواني، طه جابر: **أدب الاختلاف في الإسلام**، هيرندن: فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط5، 1992م، ص25.

– وانظر البيانوني، محمد: **دراسات في الاختلافات العلمية**، القاهرة، مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 1998م، ص32.

تلك المذاهب في بساطة ويستمسك بها في تلعق مع عدم تعمُّق، ولا استطاعة لإقامة حجج وبراهين، لوجدنا أن نسبة ضئيلة جدًّا قد لا تصل إلى الواحد في الألف، هي التي تفهم بعض تلك المشاكل وهي التي تتزعَّم إثارة الخلاف والشغب، وتحاول أن تكتِّل المسلمين إلى كتل في مذاهب معيَّنة، وأن هذه النسبة فقط أو بعضها في الحقيقة، هي التي تعرف مواضيع الخلاف والجدل أمَّا باقي أتباع المذاهب الذين يساقون في مجموعات كبرى وراء اسم إمام من الأئمة فيتمسَّحون له في عصبية ويتمسَّكون بمذهبه في حرص وتشدُّد، فهم في الغالب لا يعرفون ولا يفهمون شيئًا من تلك المشاكل المعقَّدة من علم الكلام أو أصول الفقه أو قواعد السياسة"[40] .

فمبدأ المعرفة والتعارف والاعتراف يمكن أن يتحقق ويُكوِّن علاقة تكاملية مع الاختلاف إذا بقي الاختلاف ضمن الحدود والضوابط التي حددها علماء الإسلام، ولكنه إذا جاوز حدوده، ولم تراع ضوابطه فيتحول إلى جدال وشقاق يكون سيئ العواقب يحدث شرخاً في الأمة – وفيها ما يكفيها – فيتحول الاختلاف من عامل بناء وتحاور وتنوع وتعارف إلى معاول للهدم.

الخلاف الذي يؤدي إلى التقريب والتوافق والتعايش:

هو ذلك الخلاف الذي تكون أسبابه ذاتية أصلية، لا نستطيع رفعه وإزالته، والمخطئ والمصيب فيه لا يعلمه إلا الله، فهذا النوع لا يخلُّ بتوازن المجتمع في أي كيانٍ من كياناته، مما يسعف على إنجاز التقريب بالتعارف والاعتراف الذي يفضي إلى تحقيق الوحدة الإسلامية تلقائياً، بحكم وحدة الأصول العامة، والمفاهيم الكلية، والمقاصد الأساسية العليا، وهذا ما أشار إليه الشيخ علي معمر، فهو يرى أنَّ غاية ما يجب علينا فيه هو: أنْ نتعارف ونتأدب بآداب الإسلام، ونتحلى بمكارم أخلاقه، حتى لا يكون سبباً في الإخلال بتوازن المجتمع الإسلامي كله، إخلالاً يتناول مقوماته المعنوية والمادية على السواء وهذا ما لا يجوز شرعاً المصير إليه.

وهذا لا يتأتى إلا بالرد إلى كتاب الله وسنة نبيه، قال تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59]، "ولا يكون الاحتكام إلى الله إلا بالرجوع إلى كتابه فتُسْتَلْهَم منه الحقيقة ويُسْتَبان به الحق، وكذلك الاحتكام إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لا يعني إلا بالرجوع إلى سنته الثابتة الصحيحة"[41].

([40]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 373.

([41]) الخليلي، أحمد بن حمد: **الدِّين والحياة، الخطاب الدعوي لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي**، ص6.

وعلى قاعدة من هذا الفهم للاختلاف في الإطار الإسلامي يتبرز لنا العلاقة التكاملية بينه وبين المفاهيم الثلاثة (المعرفة والتعارف والاعتراف) التي تؤدي إلى إذابة التسميات المذهبية تحت بوتقة واحدة هي الإسلام فـ"لا سنِّيَّةً ولا مبتدعة ولا شيعة ولا خوارج ولا مالكيَّة ولا إباضيَّة وإنَّما هم مسلمون يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح وكم يكون رائعًا حين يقف المدرِّس والواعظ والمحاضر فلا يحتجُّ إلاَّ بقول الله أو قول رسوله فإذا احتاج إلى كلام الناس استشهد بكلام عالم من العلماء مقتصرًا على ما ذكر اسمه وامتنع كلّ الامتناع أن يجري على لسانه اسم المذهب أو الفرقة أو الطائفة فانمحت من المجتمعات الإسلاميَّة الألقاب المطلَّقة على مجموعات الفرق كالشيعة والسنَّة والخوارج والمعتزلة واختفت منه أسماء الفرق فلم يبق ذكر للحنفيَّة أو المالكيَّة أو والإباضية أو الزيديَّة أو الظاهريَّة أو غيرها وإنَّما كلّ ما يبقى أسماء علماء ضمن كشف طويل يتضمَّن من خدم الشريعة الإسلامية منذ البعثة إلى قيام الساعة. أمَّا الأمَّة الإسلامية فهي تتكوَّن من جميع من نطق بكلمة الشهادة وإليها يتَّجه النداء القرآنيُّ الكريم {يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا} وتكون مجتمعا واحدًا لا انشقاق فيه فإذا شذَّ فرد فارتكب معصيَّة لاحقه المجتمع بالموعظة أو بالحكم الذي انزله الله حتَّى يتوب فيعود إلى مكانه أو يهلك على إصراره فيتولَّى الله تبارك وتعالى حسابه"[42].

وقد أرجع الشيخ علي معمر بعض أسباب النزاعات التي كانت بين المسلمين إلى الملك والدنيا، فـ" عندما اضطربت الأمور في أواخر الخلافة الرشيدة، وعند صدر الدولة الأموية، وبرز الصراع على الحكم بروزا واضحاً بين مختلف طوائف الناس، وظهرت الرغبات الماديَّة الملحة طافحة على تصرف الأفراد والجماعات، انقسمت مواقف الناس إلى عدَّة تكتُّلات أو أصناف... ولقد كان لكلِّ واحد من هذه الأصناف اتجاهات لها خطوط عريضة انبنت عليها فيما بعد مذاهبهم في العقيدة والسياسة"[43]، فهو ليس تفريقاً في الدّين، ولكنّه من الأحوال التي لا تسلم منها الجماعات، كما ذهب إلى ذلك الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير[44]، حيث بيَّن أنَّ سياسة الدول كثيراً ما تختلط باختيارات الأشخاص الأقوياء داخل أجهزة السلطة، وأنَّ هوى هؤلاء ينقلب محدداً لتوجهات الدولة ومواقفها في حالتي السلم والحرب، وأنَّ وقوفهم أمام احترام

([42]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 320.

([43]) معمر، علي يحي: المرجع نفسه ، ص 413، 415، 416.

([44]) انظر ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج8، ص 194.

الأفكار وحرية الآراء راجع إلى حرصهم على البقاء على مناصبهم، والمحافظة على وجاهتهم، فكل واحد منهم يخالُ أنَّ كل مخالفة له في الرأي تنذر بثَلِّ عرشه وزلزال أركانه، ومنهم الذين يسخطون من مخالفة المعتاد ويرون العادة ديناً أو شبه دين، ومنهم الذي يتوهم أن الدِّين يخالف احترام الآراء[45]، الأمر الذي أدَّى إلى صرف النشاط العقلي عن الإبداع والإنتاج الحضاري الذي يدفع الحياة الفكرية إلى الأفضل، فتأججت المجادلات وتوسعت دائرتها، ووجدت العقول في القضايا الكلامية ميداناً للمناقشة والحوار، وامتزج الجدل العقلي العقدي بالخلاف السياسي، فكانت المناظرات العلمية والحوارات الخطابية أوسع مجال لذلك، وكان البحث والنقد معيارين لبيان الصواب والخطأ، ثم اتخذ المرتابون الذين كلَّ نظرهم وضعفت حجتهم في المسائل العقدية والفقهية، التكفير والتضليل والتبديع سلاحاً يواجهون به المخالفين ليكموا أفواههم، ويخرسوا ألسنتهم، فأصبحت مقالة التكفير راسخة في الخطابين الكلامي والفقهي.

وفي ذلك يقول الشيخ علي معمر: "الحقيقة أنَّ الذي يجب أن نبحث عن مبرراته إنما هو اختلاف الآراء والأصول بين مذهب وآخر وطائفة وأخرى، لا التشابه والتقارب، وذلك لأن مصدرها واحد، وهي جميعًا تزعم أنَّها تعود إلى ذلك المصدر، فالاختلاف يبحث عن سببه والدوافع إليه، وليس من الحقيقة في شيء أن نعكس المنطق فنجعل التباعد والتباين بين المذاهب، والفرق هو ألأصل فإذا رأينا تشابُهًا أو تقاربًا بين بعضها بحثنا عن السبب المبرر كما يقول صاحب الملاحظات. ولعل المستشرقين هم الذين ركزوا هذه النظرة واعتبروا الخلافة والخصومة بين المذاهب هي الأصل فإذا وجدوا تشابها واتحادًا بحثوا عن الأسباب أو افتعلوا له المبررات على كلّ حال والأصل المذاهب أنَّها تستقي مصدر واحد وترجع إلى أصل واحد والطبيعة فيها أن تكون متشابهة متقاربة فإذا تباعدت كان على ذلك على غير أصل بحث عن أسبابه ومبرراته ولا يخرج غالبا عن أصابع السياسة في القديم وعن أصابع الاستعمار في الحديث، وعن أصابع اليهودية والمسيحيَّة في المدى الطويل، ثُمَّ عن الجهود المخلصة النبي يبدلها الجنود المخلصون للاستعمار والمسيحيَّة، وهم مستشرقون في العصور الحديثة" [46].

([45]) انظر ابن عاشور: **احترام الأفكار**، مرجع سابق، العدد 18، 1904م، ج 1، ص 279.

([46]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 470.

فغلبة الهوى والمكابرة وسوء الفهم للدِّين وقلة الهدى يعمي صاحبه، ويؤدي به إلى الفرقة والخلاف والتكفير، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[البقرة: 253]، فقوله: {فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} يدل على أنَّ الاختلاف الذي لا يبلغ بالمختلفين إلى كفر بعضهم بما آمن به الآخر لا يبلغ بالمختلفين إلى التقاتل، لأنَّ فيما أقام الله لهم من بيِّنات الشّرْعِ ما فيه كفاية الفصل بين المختلفين في اختلافهم إذا لم تغلب عليهم المكابرة والهوى أو لم يُعْمِهم سوء الفهم وقلة الهدى [47]، كما أنَّ الاستقامة على الدِّين تكون حائلاً دون تلك الفرقة فمخالفة الأمّة عمداً إلى أحكام كتابها ضرب من ضروب الاختلاف فيه، لأنّه اختلافها على أحكامه، قال r: « فإنّما أهلكَ الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافُهم على أنبيائهم»[48]، فلا جرم أنْ كانت الاستقامة حائلاً دون ذلك [49].

وهذا إنْ دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على أنَّ الإسلام سوَّغ الاختلاف والتنوع داخل منظومته، وأَّسس للتسامح والحوار مع الآخر أُسُساً راسخة تقوم على المعرفة والتعارف والاعتراف، فعقد له مواثيق متينة فيما يتعلق بعلاقة المسلمين بعضهم مع بعض، وعلاقتهما مع غيرهم من الأمم، وجعل معرفة الأفكار واحترامها، واتباع الأسلوب العلمي في الجدل والحوار هو الفيصل في إدارة الاختلاف، وهذا الأمر وحده الذي يجمع ولا يفرق ويقدم ولا يؤخر.

وبهذا يصبح التحاور مع الآخر المختلف والتعارف معه سنّة حضارية ماضية، كما يصبح الإنصاف للمخالفين والأخذ منهم دليل على الثقة في النفس وعلى الرغبة في الاستزادة من العلم والحكمة والمنفعة التي تؤدي إلى التعارف والاعتراف ومن ثم التواصل والتعايش مع الآخر، وليس دليل نقص في العقل أو ضعف في الدّين.

وقد أكد على ذلك الشيخ أيضًا أثناء حديثه عن أوجه التقارب بين الفرق الإسلامية حيث جعل أكبر "رباط الذي يربط بينهما هو رباط الأخوَّة الإسلامي، فإذا اختلفت أنظارهما في جزئيَّة فغنها

([47]) انظر ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج3، ص 11.

([48]) راوَه مسلم، انظر مسلم: **صحيح مسلم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الفضائل، باب توفيره r وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ج 4، ص 1829، رقم الحديث، 1337.

([49]) ابن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج 12، ص 175.

تتلاقى في الكليَّات ويهمُّنا ألان تتقارب أنظارهما في الجزيئيَّات. لو وجدت كلّ فرقة منهما أقلامًا صادقة ومخلصة تسعى في هذا الاتجاه، ولو تخلَّصت كلّ واحدة منها من مواقف المتعصبين المنغلقين الذين لا يرون إلاَّ أنفسهم مهما كثر وقوي الأخرون"[50].

فظاهرة الاختلاف المحمود هي التي تمثل الدافع المعرفي الذي يعيد للمفاهيم الثلاثة دورها الحقيقي في سياق تاريخ الثقافة الإسلامية باعتباره مؤَّلِداً للحراك الفكري ونقطة ارتكاز أساسية تتسنى بها مواكبة المستجدات، واستيعاب التحولات، والتعايش مع الأمم وحضارتها.

النوع الثاني: الاختلاف المذموم.

الاختلاف المذموم هو ذلك الاختلاف الذي يترتب عليه عدُّ المخالف خارجاً عن الدِّين، ويؤدي إلى التضليل ويفضي بأصحابه إلى تكفير بعضهم بعضاً، ومقاتلة بعضهم بعضاً في أمر الدّين.

وضابط هذا النوع من الخلاف هو كلّ اختلاف يؤدي إلى نقض أصول الشريعة ويخالف نصوصها، " وإن أعظمه ضرراً، وأفدحه خطراً، وأعمقه أثراً، وأسوأه عاقبة ما كان في أصول الدين، فإنها قواعد الإسلام؛ بها تقوم أركانه، وعليها يُشاد بنيانه، وبقدر ما تكون قوتها تكون متانة الدين نفسه، ولأجل ذلك فإن الأمة كثيراً ما تتسامح في الخلاف الذي يكون بين فئاتها في فروع الشريعة، ولكن يشتد شقاقها، ويتعمق نزاعها عندما تختلف في الأصول، وبقدر ما يكون من التقارب أو التباعد فيها بين طائفة وأخرى بقدر ما بينهما من التلاقي أو الافتراق"[51].

مظاهر الاختلاف المذموم ومآلاته:

1- **الاختلاف المذموم مدعاة للتكفير:** وقد تصدّى الشيخ علي يحي معمر لمقالة التكفير – التي اتخذت سلاحا في وجه المخالفين، ومسوغاً لإشهار السيف في وجوههم استناداً إلى ذرائع ظاهرها ديني، وباطنها سياسيّ عشائري نفسيّ – وذلك في كتابيه (الإباضية بين الفرق الإسلامية، والإباضية في موكب التاريخ) تصدى لهذا النوع من الخلاف وناقش فيه أصحاب المقالات الذين جنوا على المذهب الإباضي وغيره من المذاهب الإسلامية، فالتكفير في رأيه "قولة ناشئة عن قلّة تأمّل وإحاطة بموارد الشريعة وإغضاء عن غرضها"[52]، وإنّ التوسّل بهذه

([50]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 490.

([51]) الخليلي، أحمد بن حمد: **الحق الدامغ**، مطابع دار البعث، قسنطينة: الجزائر، ط2، 1412هـ، ص7.

([52]) معمر، علي يحي: الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص315.

المقالة لدليل قاطع على عدم المعرفة الصحيحة بما عند الآخر وضعف حجة أصحابها وقصورهم عن إقامة الحق، إذ تنطوي في حقيقتها وجوهرها على انتصارٍ للذات لا للدِّين.

كما أنّها تسوّغ الاعتداء والظلم وتلبسه لبوس الدِّين، وتعطي للاستبداد طابع الشرعية وتحوّل مجال الحوار إلى مجال تنابز، وتنقل الاختلاف الفكري إلى صراع وتقاتل، وتصبح فئات المجتمع مشحونة ضدّ بعضها بعضاً، فتنقلب قوى المجتمع وطاقاته إلى عوامل تآكل داخلي بدل أنْ تكون عامل قوّة ومنعة، وذلك أبرز عامل من عوامل الضعف والانهيار، وقد بيَّن ما ينبغي على العلماء فعله إزاء هذا النوع من الاختلاف قائلاً: "فإنَّه ينبغي أن تختفي بعض المصطلحات أو بعض المفاهيم، وتنشأ بدلا منها مفاهيم أو مصطلحات أخرى تكون أقرب إلى توحيد جميع صفوف المسلمين وتوحيد كلمتهم. فلا معنى أبدًا أن يأتي إنسان يسهل عليه تمامًا أن يستخفَّ بأحكام الله فيرتكب ما نهاه عنه ويهمل ما أوجبه عليه ثمَّ يزعم ـ في تبجح ظاهر ـ أنَّه سنِّي أو من أهل السنَّة. فإذا قابله إنسان آخر لا يتَّفق معه في المذهب رماه بأنه مبتدع رغم الصلاح والتقوى. والحقيقة عكس ما يقول"(53).

فظاهرة تبديع وتكفير بعض المسلمين وتفسيق بعضهم الآخر، والحكم بالابتداع على كل من يخالف رأيًا فقهيًا معينًا، ظاهرة قديمة في تاريخ الإسلام؛ لأنها نتيجة طبيعية لانحراف بعض العقول، وضيق أفقها عن قبول الرأي المخالف " فأصبح كلّ مذهب من مذاهب المسلمين إذا نظرت إليه من زاوية أتباعه هو مذهب السنَّة ومذهب الحقّ ومذهب الاستقامة ومذهب العدل ومذهب الصواب وإذا نظرت إليه من زاوية مخالفيه فهو مذهب الأهواء ومذهب البدعة ومذهب الزيغ ومذهب الضلال. وينشأ الناشئ المسلم في أكناف أحدها فتعتاد أذنه على سماع هذه الأوصاف والنعوت ويتلقَّاها ويتشرَّبها في غير كُلفة حتَّى تُصبح عقيدةً غير خاضعة للنِّقاش أو المراجعة " [54].

2- **الاختلاف المذموم مدعاة للتفرقة والتضليل والتبديع:** احتلت مقالة «الفرقة الناجية» حيزاً واسعاً في كتب التراث، فعندما صارت كل فرقة تدَّعي استئثارها بالحقيقة، وترى الفرق الأخرى سابحة في متاهات الضلالة، واستحال الاختلاف عاملاً من عوامل الصراع الداخلي بدل أنْ

(53) معمر، علي يحي: المرجع نفسه، ص 317.

(54) معمر، علي يحي: المرجع نفسه، ص 316.

يكون مصدر قوة وثراء، وانصرف العقل الإسلامي في هذا الخضم عن أداء دوره الأساسي باعتباره مصدر توليد المعرفة وتطويرها وآلة إعمار الأرض وإثمارها.

وقد تناول الشيخ علي يحي معمر هذه القضية انطلاقا من نظريته التي سعى فيها إلى ردم هوة الخلاف بين الأمة، مرجعا الأمر في ذلك كله إلى التقوى والصلاح، فالفرقة الناجية وأهل السنة المتمسكون بهدي النبي ﷺ وبتعاليم الدين الحنيف هم المتقون وأهل الصلاح من كل فرقة ومذهب وأن الفرقة الداخلة في النار هي فرقة العصاة والمذنبين والمبتعدين عن الهدي النبوي وتعاليم الإسلام فقال: "لقد آن الأوان أن تطلق كلمة أهل السنَّة على أهل الصلاح من كلّ فرقة، وكلمة السنِّي على كلّ فرد متمسِّك بالإسلام محافظ عليه حسب الأصول التي يرتكز عليها المذهب الذي ينتمي إليه"[55] .

وكذلك الأمر بالنسبة لمصطلح البدعة، فهو مصطلح استخدم كأداة للتفرقة والإقصاء للخصوم، فنبه الشيخ علي معمر على أنه يجب أنَّ تطلق كلمة المبتدعة أو أهل الأهواء على كلّ مجموعة من الناس غير ملتزمة للإسلام سلوكًا، وأنه يجب تحديد المصطلح وحصره في المتهاون بأحكام الإسلام بغض النظر عن المذهب الذي ينتمي إليه، فقال: "وكلمة المبتدع أو أهل البدعة على كلّ متهاون بأحكام الاسلام حسب المذهب الذي ينتمي إليه. لقد انقرض أتباع كثير من المذاهب الإسلاميَّة كالظاهرية والمعتزلة والخوارج ولم يبق فيها أعلم إلاَّ الماتريدية وهم أتباع أبي حنيفة والإباضيَّة وهم أتباع جابر بن زيد والأشاعرة وهم أتباع مالك والشافعي والأثرية وهم أتباع أحمد في القديم وابن تيمية في الحديث وفرق من الشيعة تجمعها كلمة الشيعة وتفترق بأسماء خاصَّة كالزيديَّة والجعفريَّة وغيرها"[56].

فالشيخ ينطلق في تحرير محل النزاع حول قضية الفرقة الناجية بإرجاع الأمر إلى نصابه وأصله ألا وهو كتاب الله وسنة نبيه، فهو المقياس والحكم "وأتباع هذه المذاهب كلها يؤكِّدون أنَّهم في دينهم يرجعون إلى أصلين هما الكتاب والسنَّة فهم ـ جميعًا ـ بهذا الاعتبار من أهل السنَّة أو سنِّيون أعني أنَّ الصلحاء من جميع هذه المذاهب سنِّيون وأنَّ الفسَّاق جميع هذه المذاهب مبتدعة وأهل هواء فالحنفي والإباضي والمالكي والشافعي والحنبلي والجعفري والزيدي

([55]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 361.

([56]) معمر، علي يحي: المرجع نفسه، ص 317.

ـ مثلاً. إذا تمسَّك بالإسلام حسب مذهبه فهو سنِّي وإذا تهاون به في واجباته عملاً أو تركًا، قولاً أو عقيدةً، فهو مبتدع.

يعني أنَّ البدعة هي الانحراف عن الدِّين، والسنَّة هي الاستمساك به على ما عرفه أيُّ مسلم بدراسته للإسلام"[57].

"ومن التحكّم المخالف للمنطق والعقل وطبيعة الحياة أنَّ نأتي إلى رجل من الزيديَّة ـ مثلا. قد درس الاسلام على مذهبه، وحافظ عليه محافظة المؤمن التقي الذي يخشى الله بالغيب فنقول له: أنت مبتدع ولا يمكن أنَّ تكون من أهل السنَّة إلاَّ إذا درست مذهب ابن حنبل وعرفت الاسلام على طريقه، وأعلنت أنَّك من اتباعه، ثمَّ تأتي إلى رجل قد غلب عليه شحَّ نفسه واستعبدته أهواؤه فترك بعض ما فرض عليه الاسلام، وارتكب بعض ما نهاه عنه فنقول له: أنت من أهل السنَّة لأنَّك تتَّبع مذهب أحمد أو مذهب محمَّد"[58].

وعليه يعلن الشيخ علي معمر أنَّ "أهل السنَّة هم الأتقياء الصالحون من أيِّ مذهب كانوا والمبتدعة وأهل الأهواء هم الفسقة والفجرة ولو لبسوا جبَّة جابر وطيلسان مالك وعمامة أحمد واتخذوا لمظهرهم سمت زيد وجعفر لقد آن لتلك المفاهيم ـ التي أملاها التطرُّف في التعصُّبات ـ أنَّ تختفي"[59].

"لقد كان المسلمون في صدر الاسلام وليس فيهم سنِّيون على الجملة ومبتدعة أو أهل أهواء على الجملة وإنَّما كانوا على قسمين كبيرين مؤمنين ومنافقون فكلٌّ من وفَّى بما عاهد الله عليه والتزم شريعة الاسلام سلوكًا وعقيدة وقولاً أو عملا فهو داخل في المنافقين ما دام يقرُّ بكلمة الشهادة ولم يرتدَّ عن الإسلام" "[60].

"وهكذا ينبغي للمسلمين اليوم يجب أن تختفي المفاهيم السابقة التي تدخل المذاهب كاملة في الجنَّة وتحرم منها أتباع مذاهب أخرى... ينبغي أن يطلق أهل السنَّة على جميع المسلمين بمختلف مذاهبهم ما داموا يعترفون بأنَّ السنَّة هي المصدر الثاني للتشريع ولا تطلق كلمة

([57]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 361.

([58]) المرجع نفسه، ص 362.

([59]) المرجع نفسه ، ص 364.

([60]) المرجع نفسه ، ص 364.

المبتدع وصاحب الهوى إلاَّ على الفاسق الذي غلبه هواه من أي مذهب كان. وعلى المؤسَّسات العلميَّة اليوم أن تحمل هذا المبدأ لتعود بالمسلمين إلى منهج الإسلام لا كرامة إلاَّ لتقيٍّ ولا عدوان إلاَّ على شقيٍّ ولا متبوع إلاَّ المعصوم ولا قدمه إلاَّ بالعمل الصالح. والأفضل من ذلك أن تلغى هذه التسميات كلها لا سنِّيَّةً ولا مبتدعة ولا شيعة ولا خوارج ولا مالكيَّة ولا إباضيَّة وإنَّما هم مسلمون يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح" "[61].

"وكم يكون رائعًا حين يقف المدرِّس والواعظ والمحاضر فلا يحتجُّ إلاَّ بقول الله أو قول رسوله فإذا احتجَّ إلى كلام الناس استشهد بكلام عالم من العلماء مقتصرًا على ما ذكر اسمه وامتنع كلّ الامتناع أن يجري على لسانه اسم المذهب أو الفرقة أو الطائفة فانمحت من المجتمعات الإسلاميَّة الألقاب المطلَّقة على مجموعات الفرق كالشيعة والسنَّة والخوارج والمعتزلة واختفت منه أسمام الفرق فلم يبق ذكر للحنفيَّة أو المالكيَّة أو الإباضيَّة أو الزيديَّة أو الظاهريَّة أو غيرها وإنَّما كلّ ما يبقى أسماء علماء ضمن كشف طويل يتضمَّن من خدم الشريعة الاسلامية منذ البعثة إلى قيام الساعة. أمَّا الأمَّة الاسلاميَّة فهي تتكوَّن من جميع من نطق بكلمة الشهادة وإليها يتَّجه النداء القرآنيُّ الكريم {يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا} وتكون مجتمعا واحدًا لا انشقاق فيه فإذا شذَّ فرد فارتكب معصيَّة لاحقه المجتمع بالموعظة أو بالحكم الذي انزله الله حتَّى يتوب فيعود إلى مكانه أو يهلك على إصراره فيتولَّى الله تبارك وتعالى حسابه"[62].

"ويبدو لي لو أنَّ لجنة من علماء الأمة حاولت أن تضع موسوعة في علوم الشريعة على أساس المواد العلمية ـ أُصولا وفروعا ـ مادة كالبسملة عند قراءة الفاتحة ورفع الأيدي عند التكبير في الصلاة، وكالحكم على مرتكب الكبيرة وصدَّق الوعد وتخلف الوعيد، ثُمَّ عرضت أقوال العلماء في كلّ مادة منها باعتبارهم أفراد من علماء الأمة، ولم تراع المذاهب التي ينسبون إليها، لالتقت جميع المذاهب على أغلب المقالات التي تقال في كلّ مادة، أعني أنَّه لوجد علماء من كلّ مذهب في كلّ مادة يقولون بما يقول به مخالفوهم أو يرجحون غير المعمول به في مذاهبهم، ولو تمَّ ذلك لظهر التقاء كلّ المذاهب الإسلامية على أغلب ما اختلفوا فيه

([61]) معمر، علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**، ص 362.

([62]) المرجع نفسه، ص 362.

وما من رأي في مذهب إلاَّ ويوجد من يقول به أو يرجحه من العلماء المستقلين في المذاهب الأخرى" "[63].

3- **الاختلاف المذموم مدعاة للتنافر والتناحر:** وقد وقع المسلمون في العديد من الفتن على امتداد تاريخهم بسبب الانتماءات المذهبية والاختلافات بين الفرق، والتي منشؤها في الغالب سوء التفاهم الذي كان بينهم في خلافاتهم كالصراع بين السنة والشيعة أو الخلاف بينهم وبين المعتزلة والخوارج، أو بينهم وبين الإباضية، ويؤكد مفهوم التعارف الذي يؤدي إلى الاعتراف والتسامح والتعايش باعتباره قيمة من القيم التي تأسست عليها الرسالة الإسلامية " وهذا الجهل بالمذاهب الإسلاميَّة، ومقالاتها الحقيقيَّة، والخلط بين ما يذهب إليه كلّ واحد منها ونسبته إلى الآخر، والتشويه الذي ينتج عن ذلك ـ سواء كان مقصودًا أو غير مقصود ـ هو ما يجب أنْ يربأ عنه حملة الشريعة الإسلاميَّة "[64].

وقد صوّر لنا هذه النظرة بعض المذاهب والتيّارات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، توهّما منها أنّ الانكفاء على الذات وغلق سبل التواصل مع الآخر المختلف هما «قارب النجاة» على قاعدة «أنّ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» وهذا الأمر أدَّى إلى تصنيف المذاهب الإسلامية من قبل المستشرقين ومن سار في ركبهم إلى معسكرات متناحرة، حيث نبه إلى ذلك الشيخ علي معمر قائلاً: " ومحاولة تصوير المذاهب الإسلاميَّة كمعسكرات متناحرة يسَّر لها المستشرقون كثيراً ويعملون على تركيزها وقد ساعدهم على ذلك بعض السطحيين من علماء المسلمين في القديم والحديث، وبمثل هذا صارت تلك المسائل بمثابة الشعارات التي يرفعها أصحاب المذاهب، وكان المتعلمون في المراحل الأولى من الطلب وأشباه العلماء من محبي الظهور يجدون فيها وسائل طيبة ومساعدة على الجدل والشغب والشهرة وحب الظهور تمامًا كما يجد العوام وأشباه العوام في بعض الخلافات الفقهيَّة العلميَّة ـ كرفع الأيدي عند التكبير، وتحريك السبابة عند التشهُّد، وقراءة البسملة في أوَّل الفاتحة ـ وسيلة لإظهار المعرفة وبيان شدَّة التمسك بالدِّين والمحافظة على السنَّة. فإذا ارتفعنا

([63]) المرجع نفسه، ص 364.

([64]) معمر/ علي يحي: **الإباضية بين الفرق الإسلامية** ، ص 94، 317.

عن هذه المستويات قليلاً على مستوى أهل العلم وأصحاب التحقيق وجدنا هذه المسائل تدور فيما بينهم على طرفين متطرفين ووسط معتدل يلتقي عليه المذهبان"[65].

وقد أدَّى ذلك إلى تكوُّن منظومة فكرية ثقافية لدى المسلمين على مدى قرون من الجمود على وحدة المعرفة والتوجس من الاختلاف والتنوع، واعتبارهما عنوان الافتراق والنزاع.

ولذلك يرى الشيخ علي معمر أنَّ "العصبيات المذهبية وأصابيع السياسة، وبُعد بعض المسلمين عن بعض وجهل أهل كلّ مذهب بما عليه الآخرون، حواجز تحول دون تعرُّف المسلمين بعضهم ببعض. أمَّا الآن ـ وقد اختلط المسلمون بعضهم ببعض وعرف الكثير منهم الكثير عن الآخرين ـ فإنَّه ينبغي أن تختفي بعض المصطلحات أو بعض المفاهيم، وتنشأ بدلا منها مفاهيم أو مصطلحات أخرى تكون أقرب إلى توحيد جميع صفوف المسلمين وتوحيد كلمتهم"[66].

الخاتمة

خلص الباحث بعد رحلته المتواضعة مع «النظرية» التعارف الشيخ علي يحي معمر المبنية على رؤية متكاملة ومستوعبة للمعرفة المؤدية إلى التعارف ثم الاعتراف، فهي نظرية تقوم على: أنَّ المعرفةَ الصحيحةَ تؤدِّي إلى التعارف الصحيح الذي ينطلق أساساً من الاعتراف بالاختلاف والتباين بين الناس، كما ينطلق من التعامل مع هذه الحقائق التكوينية في الذات الإنسانية على أنها ظاهرة طبيعية، وعلى أنها تعبيرٌ عن إرادةٍ إلهيةٍ في أنْ يكونَ الناس مختلفين، فاختلافُ الألسنِ والألوانِ آيةٌ من آيات الله البينات، وغايةُ الاختلافِ ومآلُ التعارفِ هو الاعترافُ بخصوصيةِ الآخرِ وكرامته وإنسانيته باعتبار أنّ مقاربته – المختلفة عن مقاربتنا للحقيقة – مشروعة، ومن شأنها أنْ تكونَ مثريةً لنا، وزاخرةً بِغِنَى التوازنِ المعرفي الكوني الذي لا مندوحة عنه من أجل رقي الحياة البشرية. كما ينبغي أنْ يُؤسسَ هذا التعارف للاحترام المتبادل على قاعدة هذه الاختلافات والتباينات، وليس على قاعدة إلغائها أو حتى تجاوزها وتجاهلها؛ وذلك استجابة للدعوة الإلهية.

([65]) المرجع نفسه ، ص 215، 216.

([66]) معمر، علي يحي: المرجع نفسه، ص 360.

فلم يكن التعارف الإسلامي وفق منهج القرآن وهدي النبي ﷺ خطاباً مثالياً، وإنما تجربة إسلامية فعلية، ورسالة إسلامية للعالم في الانفتاح على الثقافات الأخرى، وعلى أنَّ العلاقة التي لا تؤسس على المعرفة والتعارف والاعتراف تتأثر بالصورة النمطية التي لا تكمن خطورتها فقط في حجب التواصل والزَّج إلى الصراع بالنسبة للآخر، وإنما أيضا في سوء تقدير الذات.

أهم نتائج الخاصة البحث:

1. ينطلق الشيخ علي معمر في تأصيله لهذه النظرية من منطلق القرآن الكريم الذي يؤسس لمبدأ التعارف بين الأمم والشعوب والحضارات (ليتعارفوا), فالتنوع بين الجنس البشري لا يعني أنْ يتفرقوا أو تتقطع أواصرهم، كما لا يعني أن يتصادموا ويتنازعوا من أجل الثروة والقوة والسيادة، وإنما ليتعارفوا.
2. أسس الشيخ علي يحي معمر «نظريته» على أنَّ المعرفةَ الصحيحةَ تؤدِّي إلى التعارف الصحيح الذي ينطلق أساساً من الاعتراف بالاختلاف والتباين بين الناس، كما ينطلق من التعامل مع هذه الحقائق التكوينية في الذات الإنسانية على أنها ظاهرة طبيعية، وعلى أنها تعبيرٌ عن إرادةٍ إلهيةٍ في أنْ يكونَ الناس مختلفين.
3. حاول الشيخ علي يحي معمر أنْ يُبرز من خلال هذه النظرية الرؤية الإسلامية في موضوع الحوار والتفاعل مع الآخر القائم، وذلك من خلال استجلاء منهج القرآن الكريم الذي أُسس لرؤية كونية متوازنة ومتكاملة في الحوار والاتصال والتفاعل، ومنهج سنة النبي ﷺ.
4. تُعدُّ الدوائر الثلاث للنظرية (المعرفة والتعارف والاعتراف) عند الشيخ علي يحي معمر من المفاهيم التأسيسية لصلة المسلم بالمسلم أولاً، ثم صلته بالآخرين من أهل الكتاب، وأهل الأديان والملل والنِّحل الأخرى؛ لذلك جعلها الشيخ علي معمر من أهم وسائل وحدة الأمة وحفظ الأخوة والتسامح بين أفرادها وجماعاتها.
5. يرى الشيخ علي يحي معمر أنَّ (المعرفة والتعارف والاعتراف) رسالةً وواجباً ينبغي للمسلم أنْ يقوم به إزاء نفسه ومجتمعه وأمته والآخرين الذين يعيشون معه في هذا العالم، من أجل التعريف بنفسه، ودينه، وحضارته.

6. بَنى الشيخ علي يحي معمر نظريته على (المعرف والتعارف والاعتراف) بين المذاهب والفرق الإسلامية، ولم يبنها على الحوار والتسامح؛ لأنَّ علاقة المسلمين فيما بينهم علاقة إيمانية، توحدهم تحت بوثقه الإيمان بالله الواحد الأحد، وليست علاقة تسامحية، وشتان بين العلاقة القائمة على الإيمان، وتلك القائمة على الحوار التسامح فقط.

أهم النتائج العامة:

1. تُؤسس نظرية المعرفة والتعارف والاعتراف بكل قيمها وأخلاقياتها وضوابطها وأهدافها، بوصفها مقصداً من مقاصد الوجود الحضاري للبشرية على "منظومة التقوى" ومفرداتها الأخلاقية، والتشريعية، والعملية، والتربوية. التي من خلالها يتعارف الناس ويتفاعلون من أجل تحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية.
2. إنَّ غايةَ الاختلافِ هو معرفته، ومآلُ التعارفِ هو الاعترافُ بخصوصيةِ الآخرِ وكرامته وإنسانيته باعتبار أنّ مقاربته المختلفة عن مقاربتنا للحقيقة مشروعة، ومن شأنها أنْ تكونَ مُثريةً لنا.
3. الإسلام هو دين الحوار والتعارف والاعتراف بالآخر، وهو شريعة تطوير القواسم المشتركة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وإيجاد السّبل الضامنة لتحقيق التعايش والسلام والأمن.
4. التعارف هو الذي يحدد مستويات الحوار والتعاون، ويثريهما ويثمرهما. كما أن للتعارف دورا وقائيا في منع النزاع والصدام على مستوى الأمم والحضارات.

التوصيات:

1. الاهتمام بدراسة فكر وتراث الشيخ علي يحي معمر باعتباره فكر حضاري متزن يجمع ولا يشتت، ويوحد ولا يفرق.
2. دراسة نظرية المعرفة والتعارف والاعتراف دراسة واعية متأنية، والاستفادة منها في واقعنا المعاصر.
3. النظر إلى الموروث الفكري لما أنتجته عقول وأيدي علماء جبل نفوسة بعين الاعتبار والاهتمام، لما يتمتع به من جدة واصالة وارتباط بمنهج الإسلامي القويم.

هذا وصل اللهم وسلام على نبينا محمد وعلى آلة وصحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين، والحمد الله رب العالمين

انتهيت من كتابته يوم الأحد الموافق

5 رجب 1443هـ – 2022/2/6م بوشر مسقط سلطنة عمان.

المصادر والمراجع:

- أحمد بن حمد الخليلي: الاستبداد مظاهره ومواجهته، الطبعة الأولى، 2013م.
- أحمد الخليلي: الحق الدامغ، مطابع دار البعث، قسنطينة: الجزائر، الطبعة الثانية، 1412هـ
- أحمد بن حمد الخليلي: الدين والحياة، الخطاب الدعوي لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، إعداد خميس بن راشد العدوي، المكتب الفني أجيال، الطبعة الأولى، 2007م.
- أحمد بن حمد الخليلي: مقومات الأمة المسلمة.
- أحمد بن حمد: الخليلي معالم للجيل الواعد، هذا الكتيب أصله محاضرة ألقاها سماحة الشيخ الخليلي في أحد جوامع السلطنة.
- أحمد بن حمد الخليلي: شعائر الإسلام ودورها في وحدة الأمة، محاضرة ألقاها سماحته في جامع إزكي عصر يوم الخميس 28/محرم / 1423هـ الموافق 2002/4/11م.
- أحمد بن الحسين البيهقي: سنن البيهقي الكبرى، مكتبة دار الباز: مكة المكرمة، طبعة 1994م، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.
- الربيع بن حبيب: الْجَامِعُ الصَّحِيحُ مسند الإمام الربيع بن حبيب، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ومكتبة الاستقامة: روي، مسقط– سلطنة عمان
- طه جابر العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام، هيرندن: فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط5، 1992م،
- علي يحي معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية، مكتبة الضامري، السيب: سلطنة عمان، الطبعة الثالثة، 2014م
- علي يحي معمر: الإباضية في موكب التاريخ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب: سلطنة عمان، الطبعة الثالثة، 2008م.
- علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات، دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة الأولى، 1405، تحقيق: إبراهيم الإبياري
- محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان: بيروت طبعة 1995، تحقيق: محمود خاطر.

- محمد المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى.
- محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر: بيروت، الطبعة الأولى.
- محمد البيانوني: دراسات في الاختلافات العلمية، القاهرة، مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، 1998م.
- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت، دار الفكر، دون تاريخ ورقم الطبعة.
- محمد الطاهر ابن عاشور: التحرير والتنوير، تونس: الجمهورية التونسية، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، 1984م.
- محمد الطاهر ابن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية.
- محمد الطاهر ابن عاشور: احترام الأفكار، مرجع سابق، العدد 18، 1904م.